موسوعة
المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الأول

مركز الشرق الأوسط الثقافي

موسوعة
المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الأول

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

Middle East Cultural Center مركز الشرق الأوسط الثقافي

For Printing, Publishing, Translating & Distributing للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

General Management: الإدارة العامة:

بيروت ـ الحدث، هاتف: ٨٨٨ ـ ٤٦١٧٧٧ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ فاكس: ٤٦١٩٩٩ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ خليوي: ٦٤٠٤٩٠ ـ ٣ ـ ٩٦١

مصر ـ الدقي، هاتف: ٠٠٢٠٢٣٣٦٥١٥٢ ـ خليوي: ٠٠٢٠١٢٦٥١٠٥٦١

سوريا ـ دمشق، هاتف: ٠٣٠ ـ ٠٢٠ ـ ٠٠٩٦٣١١٤٦٤٤٠١٠ ـ خليوي: ٩٦٣٩٤٩٩٧٧٦٤

Beirut - Hadath, Tel: 961-5-461777 - 888 - Fax: 961-5-461999, Mobile: 961-3-640490
Cairo - Dokki, 002023365152 - Mobile: 0020126510561
Syria - Damascus, 00963114644010 - 020 - 030 - Mobile: 96394997764
Web site: www.lccpublishers.tk E-mail: lcc_ pub @ yahoo.com

مقدمة

كثيراً ما يردّد البعض أن «المرأة هي نصف المجتمع»... بينما يقول آخرون أنها «العَمود الفقري» لكل مجتمع... في حين ينبري كثيرون أيضاً إلى القول أنها «الدورة الدموية» لأيّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية، بينما تُعامل باحتقار في أماكن عدّة من أنحاء المعمورة...

كل ذلك صحيح... وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن «التقصير الفادح» في دورها وأهميتها وتأثيرها في مجالات شتّى من نواحي الحياة الإنسانية، لاسيّما على صعيد اقتحامها لميدان خطير هو ميدان العمل المخابراتي والتجسسي، وبرعت وتفوّقت في مجاله مثلما تفوّق الرجل ـ إن لم يكن أكثر ـ. وبالطبع، هذا التقصير لا يعفي المرأة نفسها من تحمّل مسؤوليته. وقد تجلّى هذا التقصير خصوصاً بفقدان «موسوعة» خاصة بهذا الموضوع، قائمة بذاتها، في الوقت الذي تملأ فيه رفوف المكتبات «موسوعات ذكورية»، تضفي هالة من احتكار الرجال لهذا الميدان. وهذا ما دفعني إلى سدّ هذه الثغرة احتراماً للعلم أولاً وللمرأة ثانياً والمجتمع الذي نعيش فيه وننتمي إليه ثالثاً...

هذا، وإذا كان الفيلسوف الصيني الكبير «كونفوشيوس» يقول «إن

المرأة هي أبهج شيء في الحياة»، وإذا كان «بلزاك» يقول «إن قوة المرأة وذروة عظمتها، في بعث الخفقان في قلوب الرجال. . . وهي مخلوق بين الملائكة والبشر». . . بينما يقول جويار «إن المرأة هي أحلى هدية خصّ الله الرجل بها». . فإننا نرى شكسبير، الفيلسوف الإنكليزي يقول إن «المرأة هي كوكب يستنير به الرجل، ومن غيرها يبيت في الظلام». . .

إزاء ذلك نتساءل: كم من الرجال العظام ـ في ميادين مختلفة ـ فضلوا العيش في ظلام طبيعي أمام كوكب المرأة الذي أدّى بهم إلى ظلمة القبر وظلامه؟ وكم من نساء جاسوسات أودى نشاطهن المخابراتي التجسسي بضحاياهم إلى نهاية مأساوية، أين منها ظلمة القبور ذاتها لاسيّما عند أولئك الذين كانوا يؤمنون بالقول الشائع أن «كل النساء سواء عندما تطفأ الأنوار»، في وقت كان يجب عليهم التزام أقصى درجات الحذر والحيطة في مهامهم. . . فوقعوا في الفخّ. . . الكارثة. . . متناسين القول المأثور «إن المرأة سرّ الأسرار، وعالم لا حدود له ولا قرار». أو كما قال عبد الله بن المقفع أنه «إذا شئت أن تخبىء سرّك، فاستودعه الريح التي تمر، ولا تستودعه قلب المرأة». . . في هذه الحالة، يرتسم أمام أعيننا ما قاله سقراط الحكيم في المرأة ودورها أنه «إذا جمع ما أوقعت المرأة من الشرّ والأذى على مرّ العصور، فإن الأرض لن تحمله، والجو لن يشمله، والشمس العظيمة لن تستطيع أن تضيئه، ولا أن تهبه الحرارة». . . وإذا كان لا بدّ من بعض الأمثلة على ما حملته ابتسامة المرأة من كوارث تجاه رجال وعروش وقصور وإمبراطوريات. . . فنشير إلى بعضها على النحو التالي:

● ابتسمت كليوباترا ففتنت قيصر روما، وأودت بحياة

أنطونيوس، وهزّت أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ. . . ومات قتلاً بيدها.

● ابتسمت دليلة لشمشون الجبار، داهية عصره، فخرّ لها ساجداً، ودبّ في عينيه النعاس وهو على ركبتيها، فجزّت شعر رأسه (السرّ). . . واستأصلت مصدر قوته، ومات تحت الأنقاض وهو يقوّض عمد المعبد بساعديه الفولاذيتين قائلاً: عليّ وعلى أعدائي يا رب. . .

● ابتسمت آن بولين لهنري الثامن (ملك إنكلترا)، فثار على التقاليد في وجه البابا والكنيسة والدولة، وقلب للشعب ظهر المجن، وفصل الدين عن الدولة، وهو يقول: ابتسامة الحسناء، أصدق أنباء من الكتب. . .

● ابتسمت «ماري» ملكة الاسكتلنديين ففتنت الفؤاد، والعظماء، ورجال الحاشية، فدبّ الحسد والانقسام لأجلها بين رجال القصر، وسجّل التاريخ للأسرة المالكة وصمة عار لم يعرف مثلها التاريخ. . . من عهد كليوباترا. وتنسّمت أخيراً تلك الملكة الشابة الحسناء النسمة الأخيرة من حياتها. . . بين النطع. . . وفأس الجلاد. . .

● ابتسمت «مسز سمبسون» فهزّت العرش البريطاني. . . وقامت لها الإمبراطورية العظمى وقعدت. . . واعترف بابتسامتها الساحرة أحدب نوتردام على ضفاف السين، ورئيس أساقفة كنتربري على ضفاف التايمز. . . وغادر لأجلها إدوارد الثامن لندن عاصمة العالم ليلاً في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1936، كما خرج الملك جيمس قبله أيضاً في 11 كانون الأول/ ديسمبر، يحمل اسم دوق أوف وندسور، وهو يردد لشعبه هذه الرسالة التاريخية الخالدة: صدّقوني إذا

قلت لكم إنني وجدت مستحيلاً عليّ أن أحمل عبء تبعاتي الثقيل. . . وأن أقضي واجبات الملك كما أريد. . . بغير مساعدة المرأة التي أحبّها. . . (من مختارات الهلال).

إزاء ذلك، وعودة على بدء، نستطيع القول أنه منذ خلق الله الإنسان على وجه الأرض، خلقت معه حواسه. فكانت له عينان ليرى، وأذنان ليسمع، وأنف ليشم، وأطراف ليلمس ويمشي ويتنقل، ولسان لينطق به ويذوق. . . وكما كانت هذه الحواس نعمة ذكورية، فقد كانت هي ذاتها أنثوية النعمة أيضاً. . . وجميعها وظّفت في أعمال شتّى ـ ومنها أعمال جاسوسية ـ على أرفع مستوى ذكورياً وأنثوياً، مع غلبة الاهتمام بالنشاط الذكوري في هذا الميدان على النشاط الأنثوي، في وقت بلغ فيه نجاح الأخير حدّاً فاق به نجاح الرجال، دون أيّ اعتبار للمثل القائل: «إستودع المرأة الخرساء سرّاً، تجدها تنطق». . . انطلاقاً من ذلك، فإننا نرى نابليون قد كتب ذات مرة يقول: «لم تنهزم قبائل الغال (The Gauls) أمام الفرق الرومانية ولكن الذي هزمهم هو قيصر. ولم ترتعد روما أمام الجنود القرطاجيين، ولكن الذي جعلها ترتعد خوفاً هو القائد هنيبعل. ولم تكن الكتيبة المقدونية هي التي وصلت إلى الهند، وإنما هو القائد الإسكندر. ولم يكن الجيش الفرنسي هو الذي وصل إلى نهر فيزر (Weser) وإن (Inn) ولكن الذي قاد ذلك الجيش إلى هناك هو تورين. ولم يكن جنود بروسيا فقط هم الذين تولّوا الدفاع عن بروسيا طيلة سبع سنوات ضد القوى الأوروبية الثلاث الأشدّ بأساً ولكنه القائد فريدريك الأكبر» ـ كما قال مايكل لي لانبج ـ.

على هذا الأساس نتساءل: لماذا التركيز دائماً على «القائد الرجل» وكأنه وحده خلق خصيصاً للقيادة؟ ولماذا لم يكتب عن «نساء

قادة» شهيرات ـ لاسيّما في عالم المخابرات والجاسوسية ـ مثلما كتب نابوليون عن بعض القادة الرجال (بعد أن حذف من تاريخهم أية قيمة وأهمية ودور لجنودهم وجيوشهم)؟ أليس هناك بين النساء من قمن بأعمال جليلة ومنجزات عظيمة وفّرت على البشرية ـ ومن خلالها ـ آلاف الضحايا؟ ألا تستحق بعضهنّ ذكراً أو إشارة إلى أبرزهنَّ على هذا الصعيد؟.

إضافة لذلك، هل يجوز، ونحن في القرن الحادي والعشرين، أن تبقى «العظمة الذكورية» وحدها سيّدة الساحة؟ ذلك لأن في معظم الكتابات عن الرجل والمرأة، كثيراً ما نرى تغليب «العظمة الذكورية» في معرض المقارنة بين الجانبين. بيد أن الواقع يظهر أحياناً «عظمة أنثوية» تفوق عظمة نقيضها بكثير. وهذا ما يظهر بشكل جليّ في ميدان الجاسوسية والعمل المخابراتي. وسرعان ما ترتسم أمام أنظارنا شخصيات نسائية هدمت حاجز الاحتكار الذكوري للنبوغ والتفوق والعبقرية، وأثبتت وجودها بالنيابة عن الطابع الأنثوي بشكل عام في كل زمان ومكان.

وبالرغم مما هو شائع عن أن «لسان المرأة» يتوقف عن الكلام بعد أن يتوقف قلبها عن الخفقان، إلا أن حالات كثيرة تؤكد أن المرأة توظف قلبها أحياناً في عمل خطير (كالجاسوسية) بينما تعطي «إجازة مفتوحة» للجم لسانها، وكأنها تعمد إلى كسر مسلّمات يصعب المسّ في مسلّماتها. من هنا لا نستغرب ما أشار إليه أحد الفلاسفة بقوله:

يقول الصحفيون: إن المرأة أعظم مصدر للأخبار...

ويقول العلماء: إنها أهم مصدر من مصادر الحياة...

ويقول الفلاسفة: إنها أكبر مصدر للشيطان...

هذا، مع العلم أن البعض كان ضد إقحام المرأة في العمل المخابراتي والتجسسي، بينما بادر البعض الآخر إلى تشجيع إشراك المرأة في هذا المجال. وعلى سبيل المثال، نسلّط الضوء على نماذج من الرأيين المتعارضين، استناداً إلى تجارب خبراء في العمل المخابراتي والتجسسي من أمثال جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه، وصلاح نصر، ومحمود عابدين صالح... الخ...

على هذا الأساس، يتطرق إيتيان ومونيكيه في كتابهما عن «تاريخ الجاسوسية العالمية» إلى هذا الموضوع على الشكل التالي، خصوصاً تحت عنوان «النساء في مجال الجاسوسية» بالقول:

صرّح الكولونيل «باسي» ذات يوم قائلاً:

«لم يكن الجنرال يحب العملاء من النساء، كما لم يكن يحبذ فكرة إنزال نساء إنكليزيات من الجو بوساطة المظلات فوق فرنسا المحتلة...

حتى إنني تلقيت من الجنرال ديغول، في فترة ما، أمراً بعدم استخدام عملاء من النساء بأي حال من الأحوال. بيد أنني استطعت أن أؤكّد له أن بعض سيداتنا كنّ حققنَ نجاحاً رائعاً لم يكن بمقدور الرجال إنجازه.

كان معظم رؤساء دوائر الاستخبارات السرية يشاطرون الجنرال ديغول رأيه، مؤيدين بذلك رأي الجاسوس السوفياتي الكبير «ريتشارد سورجيه» الذي كان يؤكّد، كما يُقال، بأن «المرأة غير قادرة على القيام بأي عمل تجسسي جدّي (...) وأنها انفعالية جداً وتفتقر إلى الحكم الصائب والأعصاب الباردة».

قد تكون المرأة انفعالية، ولكن هل يمكن أن تكون لهذا السبب ميالة إلى الثرثرة والحديث عن مشاغلها السرية؟ ليس هذا رأي السير

بازيل طومسون الذي كان، في آن واحد، رئيس إدارة التحقيق الجنائي التابعة لسكوتلنديارد، وصياد جواسيس مرهوب الجانب، إذ قال: «أنا لا أتفق مع رأي أولئك الناس الذين يعتقدون أن النساء يعجزن عن الاحتفاظ بالأسرار. عليهم أن يتخلوا عن هذا الزعم دون إبطاء». ولقد قال خبير آخر في هذا المجال، وهو السيد «لافرانتي بيريا»، رئيس قوات الشرطة كافة وناظر سجون ستالين، إن باستطاعة النساء أن يكنَّ أبرع من الرجال في جمع الأحاديث «ذلك أن الرجال الكبار يتحولون إلى رجال جدّ صغار في السرير ويهوون الثرثرة مع عشيقاتهم». ولئن كانت الآراء لا تزال موضع جدل ونقاش، فقد اعتبر عدد كبير من الاختصاصيين، ولمدة طويلة من الزمن، أن من الخطر استخدام النساء في مجال التجسس، إذ غالباً ما يرحن هؤلاء النسوة المغرمات والساحرات ضحية عواطفهن حين يمتزج الحب والغيرة بنشاطهنّ السري. وهذا ما حدث بالفعل في بعض الأحيان، حين وشت الراقصة «ليا نياكو» التي أعمتها الغيرة بحبيبها البولوني النقيب «جوريك دو سوسنوفسكي» وسلمته للسلطات الألمانية.

توصف الجاسوسة الأسطورية، منذ الأزمنة التوراتية، في صورة امرأة مثيرة ومغامرة، تتلاعب بالنفوس، مستعدة لاستخدام مفاتنها كافة لدفع الرجال للكشف عن أسرارهم لها. بيد أنه ينبغي الاعتراف بأن فنّ الإغراء وحده يمكن أن يفلح في بعض المواقف، حين تفشل كل الوسائل الأخرى. لقد كان الإغراء الفخ الذي وقع فيه رجال كثيرون، ومن بينهم شمشون الذي كان يتمتع بقوة جسمية هائلة ومجهولة، كما يروي لنا التوراة، والذي خانته دليلة التي أغرم بها. إذ عمدت دليلة إلى إنهاكه يوماً بعد يوم، مما دفعه في آخر المطاف إلى الاعتراف لها بسرّ قوته الجبارة، وبذلك فشل في مهمته كمنقذ لإسرائيل. وعلى هذا

النحو أيضاً تصرفت الكونتيسة الجميلة «فيرجينيا دي كاستيليون» مع نابليون الثالث، الذي كان مغرماً بالنساء الجميلات، وأقنعته بدعم قضية الوحدة الإيطالية.

ولئن كان التاريخ حقاً ينطوي على أمثلة عديدة عن جاسوسات ساحرات استخدمن مفاتنهن وقدراتهن كأفضل سلاح لهن ـ لقد جعل الأدب منهن في كثير من الأحيان صوراً وشخصيات رومانسية ـ إلاَّ أنه لم يهمل لحسن الحظ ذكر تلك النساء اللواتي اخترن، بالرغم من كل شيء، عمل الاستخبارات بدافع من المثالية أو الوطنية، فعايشن الخطر أو بذلن حياتهن في سبيل ذلك.

وهكذا شهدت العاصفة الثورية التي اجتاحت فرنسا في العام 1789 بعض النساء اللواتي لعبن دوراً سرياً ومهمّاً في المؤامرات العديدة التي حيكت وراء الكواليس. وكذلك كان الأمر خلال الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين الأعوام 1861 و 1865، حيث قامت عدة نساء جسورات باجتياز الخطوط المعادية من أجل التجسس، ومن بينهن «إيما إدموندز» التي كانت تتمتع بخيال واسع، فقامت بالتسلّل إلى خطوط القوات الكونفدرالية متنكرة بشخصيات متعددة، مستخدمة لكْنة سكان الولايات الجنوبية. وعرف الجنوب الأميركي أيضاً شخصيات غير عادية مثل الأرستقراطية «روز أونيل غرينهو» التي كانت تجمع المعلومات ذات الأهمية القصوى من رجال السياسة والديبلوماسيين والقادة العسكريين الذين كانوا يؤمون صالونها العصري في واشنطن. وقد جرى اعتقالها في الثالث والعشرين من آب/ أغسطس من العام 1861، لكنها لم تفتأ، بعد أن سُمح لها باستقبال خطّابها، في إرسال المعلومات من سجنها إلى رؤساء الولايات الجنوبية. وفي أوروبا، برزت الجاسوسات الحقيقيات خلال الحرب

العالمية الأولى. فلعدم تمكنهن من ارتداء الملابس العسكرية، اتجهت النساء اللاتي أكثرهن شجاعة إلى العمل السري. ولئن كان التاريخ قد ذكر بشكل رئيسي «ماتا هاري» التي تحدث الرواة بكثير من المبالغة عن دورها كجاسوسة في الكتب المكرسة لها، فإن من الظلم بمكان ألاّ نكرم ذكرى النسوة اللواتي شغلن مكاناً مرموقاً خلال هذا النزاع، أمثال «غابرييل بوتيه» و «إيديث كافيل»، وغيرها من النساء الرائعات اللاتي ٱلتففنَ حولها. كما نذكر أيضاً «إليزابيت شراغمولر» التي لم يتردد كثير من الكتاب في أن ينسبوا إليها مغامرات عاطفية مأسوية ونهاية مفجعة في ملجأ للأمراض العقلية. إلاّ أنّ ما هو حقيقي فقط بين كل هذه الروايات هو شغلها لمنصب هام في إدارة الاستخبارات الألمانية. ذلك أن إليزابيت كانت تتمتع بذكاء لافت للنظر وعُيِّنت مديرة لمدرسة التجسس في آنفير. وقد قال بعض الناس إنها لم تكن لتتردد في التضحية ببعضٍ من عملائها من أجل حماية بعضٍ آخر.

دفعت الحرب العالمية الثانية وأهوال النازية بكثير من النساء أيضاً إلى ميدان الجاسوسية في أوروبا، وقد بلغ عدد النساء العميلات حداً أجبر النازين على إقامة معسكر اعتقال آخر في رافينسبورك، بالإضافة إلى المقر الخاص بمعسكر بيركنو. لنذكر بخاصة، من بين تلك النسوة، ماري مادلين فوركاد التي تسلمت في العام 1941، وعمرها لم يبلغ بعد الثلاثين عاماً، قيادة «الأليانس» (الحلف)، أي شبكة الإستخبارات العسكرية الأكبر في فرنسا، فأحاطت نفسها بثلاثة آلاف عميل و 100 مركز لبث المعلومات. ولقد جرى اعتقال هذه المرأة في العام 1944، لكنها سرعان ما نجحت في الفرار من زنزانتها بعد عدة ساعات من توقيفها. وبانتهاء هذه الحرب، كانت شبكة الأليانس قد فقدت 434 عميلاً، من بينهم 35 امرأة جرى

توقيفهن وتعذيبهن، ثم توفّين في المنفى. ونذكر أيضاً الفتاة الشابة «أندريه دو جونغ» التي أسست منظمة الهروب البلجيكية «كوميت» (النيزك)، وهي المنظمة التي أتاحت للحلفاء، من شهر آب/ أغسطس من العام 1941 إلى شهر حزيران/ يونيو من العام 1944، استعادة مئات الطيارين. كذلك أبدت «فيوليت زابو» من شبكة «كلارا مالرو» شجاعة فائقة واستثنائية خلال المعارك التي خاضتها ضد أنساق الحماية الألمانية، قبل أن يتم أسرها وسجنها مع أربعين ألف امرأة أخرى في معسكر «رافينسبورك» حيث توفيت في السادس والعشرين من كانون الثاني/ يناير من العام 1945. وبعكس الأميركيين ـ إذ مُنعت النساء من العمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي حتى العام 1972 ـ استخدم السوفيات على نطاق واسع العملاء النساء اللاتي جرى تدريبهن مسبقاً على بعض الطرق الخاصة في انتزاع الأسرار من الرجال. ولقد جاء في اعترافات أحد اللاجئين السوفيات أن الإغراء كان أحد المواد التي تُدرس في معسكرات التدريب، إلى جانب قراءة الخرائط أو أعمال التخريب. بيد أن أول رئيس لمنظمة «الموساد» في إسرائيل، إيسر هاريل، كان يحرم على النساء اللاتي كن يعملن في منظمته استخدام مفاتنهن وسحرهن في جمع المعلومات.

ومما لا شك فيه أنه ظهر في الماضي وسيظهر على الدوام نساء مستعدات لاستخدام مفاتنهن كعملة للمقايضة. ولكن كم كان عدد النساء اللاتي أقدمن، بدافع المثالية أو الحب للوطن، على التضحية بحياتهن من أجل قضية؟ أو عدد اللاتي قضين نحبهن تحت وطأة التعذيب؟ أو اللاتي عرفن نهاية مفجعة وعنيفة في معسكرات الاعتقال؟ أما إذا أردنا أن نعرف ما إذا كنَّ ضارعن الجواسيس الرجال في الفاعلية والعمل، فلنستمع إلى رأي «توماس جونسون»

الذي عمل في استخبارات الأمن في الجيش الأميركي خلال الحرب الكونية الأولى. يقول توماس إن للنساء ثلاثة عيوب: إنهن يقمن علاقات غير صحيحة أو مبالغ فيها، ويفتقرن إلى المقاومة الجسمية التي يتمتّع بها الرجال، ويقعن في غرام الرجال الذين يُكلَّفن بمراقبتهم. وهذه وجهة نظر لا تشاطره فيها البتَّة «إليزابيت شراغمولر» في مذكراتها حيث تقول: «تقوم دائرة الاستخبارات، حسب بناها، على قوى بسيكولوجية وأهلية لا يمكن تعلمها أو اكتسابها من خلال مهنة ما... إن باستطاعة امرأة أن تحقق هذه المتطلبات المحددة باختصار على نحوٍ أفضل من الرجال». ومما لا شك فيه أن التاريخ قد أعطاها الحق في ذلك. يكفي أن نلاحظ، لكي نقتنع بذلك، أن عدداً من النساء يشغلن حالياً مناصب رئيسية وحساسة في عدة دوائر استخبارات هامة.

ونظراً للدور الذي لعبه صلاح نصر، كرئيس للمخابرات المصرية، وتأثيره بالتالي في مختلف المجالات من خلال الترابط الوثيق بين العوامل السياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية والنفسية وغيرها، فإنه، ولا شك، اكتسب خبرة مميزة على الصعيدين الأمني والمخابراتي، كما على الصعيد التجسسي. ومن هذا المنطلق، فقد تطرق في كتاباته إلى موضوع «الجاسوسية والجنس»، فكتب ما يلي:

«هناك عبارة شائعة ومعروفة هي: إن أفضل مكان لاستخراج أسرار الرجل هو مخدعه حينما يكون بين أحضان المرأة.

والواقع أن هذه العبارة صحيحة إلى حد كبير، إذ يبدو أن الرجال تحت التأثير المباشر للعلاقات الجنسية يفقدون القدرة على الواقعية والحكمة، وتطغى هنا قوة عاطفية توحي بالثقة بالمرأة وهي ثقة ليست في محلها، إذ أثبتت حوادث التاريخ أنها اصطناعية.

إن أغلب القصص التي جاءت عن استخدام النساء العميلات في الجاسوسية تثبت أن معظمهن كان خطراً إلى أقصى حد ضد أمن الرجال.

ومن التاريخ القديم يصدق هذا القول، ففي قصة شمشون ودليلة يبرز درس قديم وهو أن العلاقات الجنسية حينما تستخدم كسلاح في الجاسوسية بواسطة امرأة، فإنها تكون سلاحاً قاتلاً بأكثر مما يكون عندما يستخدمه الرجل.

فمع كل قوة شمشون ودهائه كانت تكمن نقطة ضعف، حينما كانت دليلة تضمه إلى صدرها وتهمس في أذنيه بكلماتها، وحينما اطمأن لها فتح لها قلبه وذكر لها سر قوته، وكان في إفشائه هذا السر هلاكه».

ويضيف صلاح نصر قائلاً:

«ويقول المعلق الفني الأميركي «كليمنت ريد» في دراسة له عن الدوافع الجنسية وراء إقبال المصورين على رسم الصور العارية: «إن الجسم البشري هو أبدع ما صور في الطبيعة، فالبحار والجبال والأشجار والأزهار وحتى الحيوانات المستأنسة والضارية لها جمالها وروعتها، ولكن ليس لها التناسق بين الأجزاء كما للجسم البشري، وخاصة جسم المرأة، والجسم الكامل للمرأة الجميلة يسترعي انتباه الرجال، كما يسترعي أضواء الشموع الفراش الذي يطير حوله».

والحديث عن العلاقات الجنسية في الطابع العلمي لم يعد اليوم حديثاً يخدش الحياء، فالكتب الطبية عن أمراض النساء والتشريح تعرض لموضوعات وتقدم رسوماً وصوراً تكشف عن أدق أجزاء الجسم البشري للرجل والمرأة.

ولقد آثرنا أن نذكر الدروس المستفادة من استخدام الجنس مع كل حالة حتى تعلق بذهن القارىء، وحتى تكون الإفادة سهلة من حيث البحث أو التطبيق العلمي.

والحق أن الانتفاع بالمؤثرات الجنسية للسيطرة على الأفراد فكرة قديمة قدم المرأة والرجل، والتاريخ مليء بقصص النساء اللاتي سيطرن على كثير من الحكام والملوك، بل حكمن الأمم والشعوب، وكانت العلاقة الجنسية هي الوسيلة الأساسية لهذه السيطرة.

وأبرز الأمثلة الواضحة نجده في «ميسالينا» إمبراطورة روما، التي كانت تقتل كل من يصل إلى فراشها، ومع ذلك كانت تجد دائماً من يريد المتعة على أن يفقد حياته بعد أن يكون قد أخلص في خدمة الإمبراطورة في مخدعها.

ومثل آخر يمكن أن نستخلصه من تاريخ اليهود. ففي قصة موسى نجد أن «يوشع بن نون» خليفة موسى كان من حسن طالعه أن وهبته الظروف عميلاً جيداً لم يكن سوى امرأة تدعى «رحاب».

فحينما أرسل يوشع باثنين من الشبان ليتجسسا على «أريحا» قبل أن يقود بني إسرائيل عبر الأردن إلى أرض كنعان، لم يحسن الاختيار كما يبدو، إذ أن العملاء في ذلك الوقت كانوا يعملون بدافع الفطرة أكثر من اعتمادهم على التدريب.

وبدلاً من أن يكرس الشابان جهودهما لجمع المعلومات المطلوبة توجّها إلى إحدى المواخير التي تديرها رحاب، وفي أثناء وجودهما سمع حديثهما مواطن من أهل المدينة، وكانت لهجة حديث الجاسوسين كافية وحدها للكشف عن حقيقتهما بين جمع من الناس يختلفون عنهما في اللهجة، وأسرع المواطن فأخبر الملك بوجودهما،

وجاء ضباط الأمن وطرقوا باب رحاب مطالبين بتسليم الجاسوسين، ولكنها كانت قد اتفقت معهما على إخفائهما نظير أن تعطى الحماية هي وكل من في منزلها حينما يهاجم اليهود أريحا.

وخدعت رحاب رجال الأمن، وذكرت لهما أن الجاسوسين غادرا المنزل، فأسرع الرجال باللحاق بالجاسوسين دون أن يعنوا بتفتيش المنزل.

وعاد الرجلان إلى يوشع بعد أن أعطيا الأمان لرحاب، واتفقا معها على وسيلة لتوضيح منزلها في أثناء الهجوم، إذ طلبا منها أن تسدل قطعة من القماش القرمزي اللون من النافذة.

ولم يعد الرجلان دون الحصول على المعلومات المطلوبة، وقد أعطتهما رحاب معلومات كثيرة عن دفاعات المدينة ووسائل حراستها، وكانت بحكم عملها تعرف الكثير من المعلومات من المواطنين الذين يرتادون ماخورتها.

ويعد هذا الحادث واحداً من الحوادث النادرة في التاريخ التي تعتبر فيها العلاقات الجنسية مجزية.

إضافة لذلك، وفي التاريخ المعاصر، استخدم الجنس كسلاح في الجاسوسية، ولكن نظر إليه كوسيلة للاستخدام العادي، ولم يطبق إلا في الحالات التي يصبح فيها هذا الاستخدام هو الوسيلة الوحيدة لإمكان تحقيق الهدف على أساس أن «الغاية تبرر الوسيلة».

على أن النتائج التي يحققها هذا الاستخدام، تتوقف إلى حد كبير على عقلية وتفكير المجتمع الذي يمارس فيه هذا الاستخدام.

فبينما ينظر المجتمع الشرقي إلى العلاقات الجنسية على أنها وظيفة طبيعية وهامة كأية وظيفة من وظائف الجسم البشري، ينظر إليها المجتمع الغربي على أنها سلوك عادي من أنواع السلوك التي تبقى

الحياة بها تتابع سيرها العادي، أو بمعنى آخر فإن الرجل الغربي ينظر إلى الاتصال الجنسي على أنها متعة إضافية، بينما ينظر إليها الرجل الشرقي على أنها متعة لازمة ضرورية.

وتلعب العاطفة دوراً كبيراً في أعمال الجاسوسية، بل تعد عملاً له خطورته. وغالباً ما تسبب مشكلات كثيرة لأجهزة المخابرات التي تستخدم هذا الأسلوب، بل إن رئاسات الأجهزة لا يهدأ بالها حتى تنتهي مهمة العملية سواء بالنجاح أو الفشل.

وبالرغم من ذلك، فإن الجنس استخدم في أعمال الجاسوسية، سواء في الغرب أو الشرق، ولكن بأشكال متباينة.

على هذا الأساس، نستطيع أن نقول أن استخدام العلاقات الجنسية كسلاح في الجاسوسية، قد يرتد إلى من يستخدمه، ومن ثم يجب العناية تماماً بأسلوب الاستخدام.

ولهذا السبب فإن الرجال الذين يمكن الوثوق بقدرتهم على تجنب الوقوع في حبائل النساء والعميلات، قد أثبتوا أنهم عملاء ناجحون.

أي أن العلاقات الجنسية يمكن أن تستخدم في أعمال الجاسوسية بالنفع أو الضرر، وللكسب أو الخسارة، فهي سلاح تبادلي حينما تفشل كل الوسائل الأخرى.

كما أن استخدام العلاقات الجنسية يتطلب أموراً يجب أن تكون واضحة ويمكن أن نذكر أهمها وهي:

أولاً: ضمان الاستجابة من جانب الشخص الذي تحاول العلاقات الجنسية إغراءه واصطياده. فقد يقاوم الرجل، وأبرز مثل لذلك قصة رجل الأعمال الأميركي الذي لم يتردد في الوثوب من

فراشه، حينما بدأت الفتاة التي كانت بجانبه توجه له سؤالاً فهم مرماه. لقد ارتدى ملابسه فوراً وصاح في وجهها بالابتعاد عن طريقه، وأن تخبر من أرسلوها بأنهم قد أخطأوا في تحرياتهم عنه.

ثانياً: يجب إعداد المرأة اللعوب إعداداً دقيقاً وتدريبها على الإغراء بعد التأكد من توافر صفات معينة فيها، مثل سرعة البديهة والذكاء الحاد، واللياقة، وبذلك يمكنها أن تصل في ساعات النشوة إلى الحصول على ما تسعى إليه من معلومات دون إثارة ارتياب الرجل.

ثالثاً: يجب إعداد الضحية والوصول بالرجل إلى الدرجة التي تكون رغبته عندها للاتصال الجنسي مساوية لاستعداده في أن يقدم ما هو مطلوب منه من معلومات.

على أنه سواء كان استخدام الجنس كوسيلة «لغسيل المخ» على مثال ما فعله الصينيون مع أسرى الحرب الكورية من العسكريين الأميركيين، أو الحصول على معلومات على مثال ما فعلت الدول الأخرى، فإن هذا السلاح سيظل عاملاً في ميدان الجاسوسية ومكافحتها، ويجب أن يكون دائماً موضع البحث والدراسة.

ولكن من ناحية أخرى فإن المرأة التي تفرط في عفافها من أجل الحصول على معلومات بأجر تعد امرأة غير ثابتة ويتعذر الاطمئنان إليها، بل قد تكون خطراً كبيراً على الأمن، إذا كان هدفها إشباع رغبة مادية أو مغامرة شيقة، أو بحثاً عن عمليات الاستثارة والشهرة.

كما أنه من وجهة أخرى، فإن الرجل أقدر من المرأة على التظاهر بالحب والتولّه دون أن يكون حقيقياً، وهذا كفيل بأن ينقذه من الخطر الذي قد تتعرض له المرأة إذا سلكت نفس السبيل.

أما محمود عابدين صالح، فقد أشار إلى موضوع «المخابرات والنساء» أيضاً، فكتب قائلاً:

تعددت الآراء حول إقحام المرأة في أعمال الاستخبارات والجاسوسية. منها من اعترض بوضوح على اشتغالها بأجهزة المخابرات اعتماداً على أن المرأة بطبيعتها انفعالية وتفتقر إلى الأعصاب الباردة وربما للحكم الصائب في بعض الأحيان وأنها ميالة للثرثرة والحديث عن مشاغلها السرية، وفي أحيان كثيرة تعجز عن الاحتفاظ بالأسرار وتقوم بتسريبها تحت التأثيرات العاطفية، حيث تمتزج مشاعر الحب والغيرة وما يترتب عليه من تأثير سلبي على عملها السري بدوافع انتقامية ضارة، وأن من الخطر استخدام النساء في مجالات الأعمال الأمنية. كما وأن هناك رأياً آخر يدعم اشتغال المرأة بالأعمال الاستخبارية لما تتمتع به من مزايا طبيعية متفوقة فيها على الرجل حيث باستطاعتها أن تنتزع الأسرار والاعترافات من العشاق لها بسهولة، لأن الرجال يهوون دائماً الثرثرة مع عشيقاتهم، وأن اللقاءات الغرامية تعتبر من الميادين الخصبة للحصول على المعلومات السرية للغاية، ذلك بالإضافة إلى أن فن الإغراء ـ والذي تجيده المرأة ـ هو الفخ الذي يقع فيه الرجال دائماً ويستدلّون على ذلك بحكاية شمشون الجبار والذي كان يتمتع بقوة هائلة ومجهولة. فقد تم اكتشاف سرّ قوته حين أغرم بدليلة والتي عمدت إلى الحصول على سرّ قوته سرعان ما جردته منها، وهذا ما عجز عن الوصول إليه كافة الرجال الأذكياء والأقوياء في ذلك الزمان. ويستند أصحاب الرأي بدعم النساء للعمل في المجالات الأمنية على الكثير من الأمثلة التاريخية المنتشرة في معظم بلدان العالم والتي أثبت فيها بعض النساء وبدافع من المثالية

والوطنية معايشة المخاطر والمهددات ومنهن من بذلن حياتهن في سبيل ذلك.

ونجحت نساء كثيرات في إدارة العمل الاستخباري. فقد كانت الفرنسية (ماري مادلين فوركاد) والتي كانت تبلغ من العمر الثلاثين عاماً قائدة لشبكة الاستخبارات العسكرية. فأحاطت نفسها بحوالي ثلاثة آلاف عميل ومائة مركز لبث المعلومات. واستطاعت البلجيكية (أندريه دو جونغ) تأسيس منظمة (النيزك) التي أتاحت للحلفاء استعادة مئات الطيارين الذين تم أسرهم بواسطة الألمان. وفي عام 1988 تم تعيين الدانماركية (فان بيش هاتسون) على رأس دائرة الاستخبارات السرية. كما تم تعين (ستيلا ريمينغتون) لرئاسة القسم (M15) البريطاني في 1992. وأصبحت الأميركية (كريستين ويلي) عام 1995 المديرة المساعدة في وكالة المخابرات المركزية الـ (C.I.A) لشؤون الموارد البشرية. وكانت الروسية (سميرنافو) والتي وصلت رتبتها «لواء» قد عينت رئيسة لوكالة الاستعلام والارتباط الفيدرالية. وفي الصين تم تعيين (لي شوزينغ) الاختصاصية في العمل السري رئيسة إدارة الارتباطات الدولية. كما أصبحت الأميركية (كوندوليزا رايس) مستشارة الرئيس الأميركي جورج بوش (الإبن) لشؤون الأمن القومي. وأصبحت دائرة المخابرات البريطانية (M15) تضم أكبر نسبة من النساء في العالم، حيث يمثل العنصر النسائي ربع عناصر العاملين في الجهاز.

والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأميركية منعت النساء من العمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي حتى عام 1972. أما السوفييت فقد كان الاستخدام للنساء في (الكي. جي. بي) يتم على نطاق واسع ويجري تدريبهنّ مسبقاً على بعض الطرق الخاصة في

انتزاع الأسرار والمعلومات الدقيقة من الرجال، حيث أن الإغراء كان أحد المواد التي تدرّس في معسكرات التدريب إلى جانب قراءة الخرائط وأعمال التخريب والتدريب على استعمال الأسلحة المختلفة وتوفير اللياقة البدنية المرتفعة وأساليب استعمال القوة للدفاع عن النفس، كما كان التدريب يهدف إلى تخليص النساء العاملات في جهاز المخابرات من أهم العيوب وهي:

- إقامة علاقات غير صحيحة ومبالغ فيها.

- الافتقار إلى المقاومة الجسمانية التي يتمتع بها الرَجل.

- الوقوع في غرام عاطفي للرجال الذين يكلفن بمراقبتهم.

وبالرغم من أن العديد من الجاسوسات الساحرات استخدمن مفاتنهن وقدراتهن كأفضل سلاح لهن لانتزاع الأخبار والمعلومات والأسرار الغاية في السرية، إلا أن هناك العديد من النساء اللائي استخدمن العقل والعلم والثقافة والذكاء والحيل الماكرة في الحصول على أدق المعارف والأسرار والمعلومات. وأن هنالك أيضاً الكثيرات اللواتي شاركن في الأعمال القذرة التي تقوم بها أجهزة الاستخبارات المختلفة في الخطف والتدمير والاغتيالات. وقد كان مصير عملاء أجهزة المخابرات من النساء عند اكتشافهن كمصير الرجال سواء كانت العقوبة الشنق أو الرمي بالرصاص أو السجن لمدد طويلة أو الحياة في الظل، وفي بعض الأحيان الحصول على الأوسمة الرفيعة من الدولة.

أدركت المخابرات المعادية للعرب بأن اشتغال المرأة في أعمال الاستخبارات الموجّه ضد الأنظمة العربية ومواقع اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي والعام سيكتب لها النجاح إذا أتيح للنساء الجميلات الدخول في هذا المضمار، خصوصاً وأن أعداء الأمة

العربية يعرفون معنى الكبت الجنسي لدى الشباب العربي ومفهوم الأعراف وخصوصاً لدى المراهقين حيث تظل عقدة الجنس سيفاً مسلطاً على الرؤوس فلا يستطيع المقاومة إلا القليل. فكثيراً من الرؤوس سقطت وأخرى انحنت وركعت أمام الإغراء من قبل نساء الجاسوسية الحسناوات العاملات لصالح المخابرات الصهيونية والأميركية والغربية وغيرها. وقد تبين ذلك حين ازدادت الفضائح وانكشفت الأسرار التي كان ضحاياها من ضعاف النفوس.

ويلاحظ أن عمليات الاختراق الاستخباري والتجسس في وطننا العربي كانت دائماً نتاجاً لعدم القدرة على مقاومة الإغراء الجنسي واتباع الشهوات والعواطف والضعف أمام المرأة المنفذة لعمليات الاختراق والمدربة على أساليب التجسس والمكلفة بالحصول على أدق المعلومات السرية. وإن لم يتم التحرر من عقدة الجنس فسيكون خطر النساء الجاسوسات بدون مقاومة وسيكون المجال أمام أجهزة المخابرات المعادية مفتوحاً للحصول على ما تريده من معلومات سهلاً وميسراً عن طريق الرجال الضعفاء.

خلاصة القول إن عامل «المساواة» برز بوضوح بين رجال الجاسوسية ونسائها في قضايا ومسائل كثيرة، وذلك بعد أن أثبتت المرأة وجودها بقوة في هذا الميدان، ومنها:

1 ـ اقتحام ميدان العمل المخابراتي والتجسسي أنثوياً مثلما اقتحمه الرجال، وبرعن فيه أحياناً أكثر مما برع فيه العنصر الذكوري.

2 ـ المشاركة ميدانياً في كل ما يتطلبه العمل المخابراتي والتجسسي من تنصّت وانتزاع معلومات وخطف وتدمير واغتيالات ومؤامرات وتهريب... الخ...

3 ـ مصير النساء الجاسوسات كمصير الكثيرين من الرجال عند

اكتشافهن سواء كانت العقوبة الشنق أو الرمي بالرصاص أو بالانتحار أو السجن لمدد طويلة أو الحياة في الظل. . .

4 ـ الحصول على أوسمة رفيعة من الدولة (كما سبق وأشرنا). . .

وثمة مسألة برز فيها تمييز كبير في العمل المخابراتي والتجسسي بين العامل النسائي نفسه. وقد تمثل هذا التمييز في عدم اقتحام المرأة العربية الميدان الذي اقتحمته المرأة في المجتمعات الأخرى، لاسيما الغربية منها، لمصلحة البلد الذي تنتمي إليه، كل من هذه النسوة، وذلك لأسباب تتعلق بالطابع الشرقي المدموغ بالعادات والتقاليد العربية أو الإسلامية، بينما نرى أن أعداء العرب والمسلمين قد استغلوا هذه الناحية ووظفوا نساء من أصول عربية وإسلامية في أعمال جاسوسية ضد أمتهم وأوطانهم، نجحت كثيرات منهن لفترة، بينما اعتقلت بعضهن في أول طريق التجسس، الذي اخترنه طوعياً أو قسرياً. . . لكن التجسس في النهاية له مفهوم واحد، وليس له أكثر من مفهوم. . . وسيبقى التجسس قائماً بين الدول، في كل زمان ومكان، كما سيكون للمرأة دورها فيه، وبشكل فاعل أيضاً، لاسيّما بعد أن نالت المرأة علامة مميّزة ـ وبتفوّق ـ في ميدان العمل المخابراتي والتجسسي في مختلف البلدان، بالإضافة إلى الاهتمام الجدّي الذي توليه أجهزة الاستخبارات المتعددة بتجنيد النساء في صفوفها، وتكليفهن بمهام ومسؤوليات لا تقل خطورة عما توكل إلى الرجال، حتى في أكثر المناطق سخونة وأهمية.

وليست هذه الموسوعة التي تضم كوكبة من النساء اللواتي اقتحمن ميدان المخابرات والتجسس، إلا الدليل الحيّ على إثبات «العظمة الأنثوية» إزاء «العظمة الذكورية» وبشكل يؤكد تلازم

«العظمتين» في هذا الميدان، بعيداً عن إمكانية «إلغاء الآخر» مهما كانت الظروف والأحداث. ولم يكن ذلك ليحصل على هذه الصورة لولا الجدارة النسائية التي تكرست بقوة في ميدان العمل المخابراتي والتجسسي، وفرضت بالتالي وجودها في هذا الإطار، فاستحال إبعاده أو إنكاره أو إلغاؤه. . .

صالح زهر الدين

مراجع المقدمة

1 ـ مايكل لي لانتج «**مائة قائد عسكري**» (تصنيف لأكثر القادة العسكريين تأثيراً في العالم عبر التاريخ). مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. أبو ظبي. الطبعة الأولى 1999. ص10.

2 ـ سيّد صدّيق عبد الفتاح «**موسوعة أقوال الفلاسفة والحكماء في عالم النساء**». مكتبة مدبولي. القاهرة. (في جزءين). دون تاريخ. ص11 ـ 12 و 41.

3 ـ د. علي موسى «**حكم وأمثال في المرأة**». دار نينوى. دمشق. الطبعة الأولى 2001. ص87 ـ 89 و 94 و 103.

4 ـ محمود عابدين صالح «**المخابرات والأمن والجاسوسية**». طباعة خاصة. القاهرة. مكتبة مدبولي 2003. ص347 ـ 350.

5 ـ جينو ڤيفا إيتيانْ وكلود مونيكيه «**تاريخ الجاسوسية العالمية**»... ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص219 ـ 222.

6 ـ صلاح نصر **الحرب الخفية ـ فلسفة الجاسوسية ومقاومتها**». منشورات الوطن العربي. الطبعة الثانية 1982. ص168 ـ 195.

7 ـ صلاح نصر «**الحرب النفسية**». الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة 1967.

حرف الألف

1 ـ أدريين
2 ـ أرسولا ريختر
3 ـ أستير بورسندورفير.
4 ـ إسفير غريغورييفنا يورينا.
5 ـ ألكسندريا لنكولن.
6 ـ إليزا مانينغهام بولر.
7 ـ إليزابيت باك.
8 ـ إليزابيت بنتلي.
9 ـ إليزابيت شراغمولر.
10 ـ أليس شايتون.
11 ـ آمي ثورب (آمي أليزابيث).
12 ـ إميلي.
13 ـ أمينة المفتي.
14 ـ آن كريستين روب.

15 ـ آن ماري ليسر.

16 ـ آنّا بيلين مونتيس.

17 ـ آنّا ستيبانوفنا ديميدوف.

18 ـ أنجا جورجون (أو أنجالور مويرك)

19 ـ أنجيلا ماريا رينالدي.

20 ـ أندريه دو جونغ.

21 ـ إنشراح موسى.

22 ـ أنطوانيت غيانساتا.

23 ـ أنغريد غارب.

أدريـن(*)
Adrian

(-   )

هي إحدى حلقات الجاسوسية الألمانية والجاسوسية الأميركية معاً، من خلال جمالها أولاً والمكان المخصص لاصطياد الكثير من الأهداف المحدّدة في المربع الليلي في عاصمة المجر (بودابست) ثانياً، ومن بعده في تركيا من خلال التنافس الألماني ـ الأميركي، حتى عرفت بـ **«لؤلؤة البوسفور»**.

فمن هي أدرين؟ وماذا عن دورها في كلا المكانين؟

كانت بودابست في عام 1940 إحدى العواصم الأوروبية التي تعج بالجواسيس، فكنت ترى بها أنواعاً من الجواسيس قلما يلتقون بمحل آخر.

وكالعادة فإن المرابع الليلية، هي صيد آخر للجواسيس، وإن سلاح الجنس هو أحد أهم أدوات الجاسوسية. واشتهر في بودابست عاصمة المجر التي يخترقها نهر الدانوب، مربع ليلي عرف باسم (بابا جاللو) وكان محط زوار العاصمة بحيث لا يكادون يحطون فيها

(*) **المرجع**: سمير عبده «التحليل النفسي للجاسوسية». دار الكاتب العربي. دمشق. الطبعة الأولى 1989. ص74 ـ 92.

الرحال ويفكرون في البحث عن مكان يقضون فيه السهرة الأولى حتى يجدوا أنفسهم في هذا الملهى، حتى لقد قيل مرة أن الباحث عن أي زائر كبير للمجر يستطيع أن يجده بسهولة في أول ليلة في هذا المربع الليلي.

وتأتي شهرة المرابع عادة من الفرق الفنية التي يقدمها، والتي تكون نجماتها من أجمل النساء وأشدهن جاذبية. ومن هؤلاء كانت **أدريين** التي لقبت فيما بعد باسم (لؤلؤة البوسفور). إنها راقصة حسناء المحيا، جميلة الطلعة، فاحمة الشعر، نجلاء العينين، ذكية سريعة الخاطر، تعرف من لغات أوروبا أكثرها، يدل حديثها وثقافتها على أنها ليست من بنات الهوى أو ساقطات أوروبا الوسطى؛ بل ترجع في أرومتها إلى مستوى أرفع من ذلك.

فقد كان أبوها شقيقاً لمدام لوبسكو عشيقة الملك كارول ملك رومانيا في ذلك الحين (وقد أصبحت زوجته بعد عزله عن العرش) وقد أقام زمناً في مونت كارلو، مدينة الجمال والقمار، وملتقى العظماء الذين لا يعرفون أين ينفقون أموالهم الطائلة إن لم يكن على موائد الميسر.

كان الأب يخطط لابنته مسيرتها عبر الفن بالانتقال من مونت كارلو إلى بوخارست، ثم إلى بودابست مع تردد على باريس بين سنة وأخرى. وكان مشهوراً بأناقته وطلاوة حديثه الخلاب، يجالس عليّة القوم فلا يملّون حديثه، وعن طريقه عرفت ابنته أعظم شخصيات أوروبا، وأدركت كثيراً من التطورات الخفية وراء الستار السياسي، حتى إذا ما انتقل الأب إلى العالم الآخر لم تجد الفتاة صعوبة في جني الأرباح الكبيرة من ارتياد الملاهي ومصادقة كبار الرواد، إلى أن

احترفت الرقص في ذلك المربع الليلي الكبير، فسحرت الألباب وأسرت العقول، وتحول ملهى (بابا جاللو) إلى وكر للجاسوسية يرتاده الساسة والقواد.

❀ ❀ ❀

في أوائل عام 1940 كانت الحرب العالمية الثانية مقتصرة على ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وبولونيا، ولم تكن إيطاليا ولا أميركا ولا الدول الأخرى قد دخلت الحرب بعد، وكانت بودابست مثل غيرها من عواصم البلاد المحايدة، مركزاً من مراكز الجاسوسية وجمع الأنباء لشعور الدول جميعاً بأن أتون الحرب العالمية الثانية أوشك أن يفتح مصراعيه ويبتلع ثمانية ملايين من شباب العالم ونسائه وأطفاله.

وصل في هذا الوقت إلى العاصمة المجرية دبلوماسي أميركي لامع، اسمه إيرل، كان في الخمسين من عمره، ولكنه كان في مظهر الشباب القوي لنشاطه الجم وتراثه العظيم، ومن أوتي مالاً موفوراً هانت عليه صروف الدهر وخف عبئه وخيل إلى من يراه أنه دون سنّه بكثير وأن الشباب لا يزال معتمراً به.

وكان طبيعياً أن يتردد على ملهى بابا جاللو حيث جذبته أدريين، هذه الفتاة الساحرة. وكان كلما رآها قال لأصدقائه أنها بلا شك ستعلب دور هاماً في السياسة الدولية. ولما كان ثرياً فقد أنفق كثيراً أثناء تردده على ذلك الملهى الكبير، فكان المال الذي أنفقه أول أحبولة صاد بها إيرل هذا الصيد الثمين المتجسم بأدريين.

ويوماً عن يوم عرفا بعضهما البعض، ويقال إن عاطفة قوية عنيفة نشأت في قلب الراقصة الحسناء، فلم تستطع له فراقاً، حتى إذا ما علمت أنه يتولى منصباً دبلوماسياً كبيراً في صوفيا عاصمة بلغاريا،

تركت الملهى والمجر وألوف المعجبين بها من الأثرياء وانتقلت إلى صوفيا، غير عابئة بأي نوع من الحياة، ولكن ضباط الحدود كانوا قساة.

بيد أن إيرل لم يكن يفكر في حسنها الرائع قدر تفكيره في الفائدة الكبرى التي يستطيع جنيها منها لو استخدمها لجمع الأنباء التي يريد تدعيم تقاريره الدبلوماسية بها وكان يعلم أن كالتنبرونر رئيس الجاسوسية الألمانية يحاول اصطيادها ويلقي شباكه حولها لعلها تصبح من جاسوساته المشهورات، فخشي أن يفوز بها الألماني دونه فضاعف جهوده حتى رضيت أن ينزلها بفندق كبير كان يدعى فندق (بلجاري)، ثم رأى أن تردده عليها يثير فضول الناس، فاستأجر لها داراً جميلة قرب حديقة البلدية في أهم حي من أحياء العاصمة البلغارية. غير أن الحسناء التي تقضي حياتها راقصة في الملاهي لا تستطيع أن تخلص لرجل واحد زمناً طويلاً، فالإتجار بجمالها هو حرفتها، وهي دائمة الفزع على مستقبلها، تخشى أن يملها عشيقها فيهجرها، فلم لا تتخذ لها عشيقاً ثانياً، على سبيل الاحتياط، يقيها شر المستقبل المجهول؟.

وأخيراً وقع اختيارها على عشيقها الجديد، ولم يكن هذا سوى صحافياً ألبانياً بادي السخاء، عظيم الثروة يدعى أحمد ديللو، وإن كان مجهول الأصل لا يعرف أحد من أين أتى ولا إلى أي البلاد يريد أن يصل.

❀ ❀ ❀

لم تكن الحكومة البلغارية راضية عن تصرفات إيرل فوق أراضيها، فقد كان يقوم بنشاطات تتنافى مع العرف الدبلوماسي، هذا

على الأقل ما يقال حين تطلب دولة من أخرى أن تستبدل أحد الدبلوماسيين لسبب قد يكون مجهولاً.

وقد استجابت الحكومة الأميركية لطلب بلغاريا في أن تسحب دبلوماسيها هذا، وتم نقله إلى استنبول في منصب الملحق البحري بالسفارة الأميركية في تركيا.

في هذه الأثناء، كان الحب قد فتر قبيل ذلك بين إيرل والفتاة الحسناء، فتحول من إعجاب وهيام إلى مبادلات تجارية سياسية، فكان يغدق عليها العطاء وتغدق عليه أخطر الأنباء عن استعداد الروس في شرق أوروبا، وتأهب الألمان في وسطها وغربها. وكان إيرل شديد الكراهية لروسيا والارتياب في نياتها، فرأى أن نقله إلى استانبول سيحرمه من جميع الأنباء والتقارير التي يسهل جمعها في عاصمة بلغاريا، تعاونه في ذلك أدريين الجاسوسة الناعمة.

إن ذهابه إلى استانبول أمر يجب إطاعته، وكي تكون أموره ميسرة فلا بد من وجود أدريين إلى جانبه، فكيف السبيل إلى ذلك وهو لا يستطيع جرها وراءه من عاصمة إلى أخرى؟ ولكنه بعد تردد ذهب إلى دارها وتحدث إليها بصراحته المأثورة عن حيرته، على أنها لم تمهله لحظة بل أجابته أنها سترافقه حيثما ذهب، لأنها لا تستطيع أن تعيش بعد اليوم إلا بالقرب منه، ولكنه كان رجلاً مجرباً يعلم علم اليقين أن قلبها لم يعد معه، وأن هذه العاطفة (مالية) أكثر منها قلبية، غير أنه اغتفر لها خداعها لأنه يتخذها وسيلة لجمع الأنباء وكتابة التقارير، وهذه الأمور أساسية في عمله.

اصطحب إيرل أدريين معه في توجهه إلى تركيا، وعند الحدود وقف القطار لفحص جوازات السفر، وفي الحال سمح لإيرل بالدخول

إلى الأراضي التركية لأن جوازه يشير إلى أنه الملحق البحري الأميركي الجديد في استانبول، في ما رفض الضباط من حرس الحدود السماح لأدريين أن تعبر إلى بلادهم لأنها تعمل راقصة، فأدركت أدريين أن عشيقها الألباني قد يكون وراء هذا المنع لغيرته، ولاسيما حينما قال الضباط الأتراك لإيرل أنها جاسوسة، وأن تقريراً عن ذلك وصل من بودابست إلى أنقرة، وأنهم لا يريدون أن تسوء العلاقات بين بلادهم وبين أي دولة أجنبية أخرى من أجل امرأة، مهما بلغت من جمال الخلقة وروعة الهندام وخفة الروح وذلاقة اللسان.

حاول إيرل التوسط بعد أن رأى أدريين تبكي بكاء مراً لافتضاح أمرها وخوفها من العودة إلى صوفيا، ولكن جهوده ودمعاتها لم تؤثر في الأتراك فعادت هي إلى صوفيا في ما دخل هو تركيا بحقائبه.

لم تتجه أدريين إلى صوفيا كما هو المتوقع، بل انتقلت في أول قطار من الحدود التركية ـ البلغارية إلى بودابست، ولما كانت مجرية الجنسية من عهد قريب فإنها لم تجد صعوبة في دخول المجر، وهناك عادت إلى ملهى البابا جاللو، فوجدت فيه ترحيباً عظيماً، واستردت مجدها السابق من جديد. وذاع صيت هذه الراقصة الحسناء، فانصرف عليّة القوم مرة أخرى إلى هذا الملهى يتخذونه مكاناً لسمرهم في الليل، وكانت حجرة ثياب أدريين تمتلىء كل ليلة ببطاقات الزهر والهدايا الفاخرة، وعرفت الحسناء كيف تعود إلى عرشها الذي كاد يزول بعد سفرها إلى صوفيا، وتدفقت الأموال تحت قدميها وطلب يدها أكثر من شاب من النبلاء على أن تترك الرقص، ولكنها كانت ترفض ما يعرضون، فقد كان إيرل يواصل بثّها الشكوى في رسائله الرقيقة، وكان أحمد ديللو يشبع شبابها وفتنتها ورغبتها في الدنيا بشبابه وماله وقوته، ولو أنه اختفى من العاصمة المجرية منذ بعض الوقت.

وفي أحد الأيام، وفي ما كانت أدريين تجلس في حجرة ثيابها بالملهى، إذا بها تسمع جلبة خارج الحجرة، وسمعت صوتاً يصيح «لا بد لي من مقابلتها لأمر هام، ولست من عشاقها حتى تحاولوا منعي من رؤيتها»، فأسرعت إلى الباب لترى ما يحدث خارجه، وإذا بها أمام شاب وسيم الطلعة أشقر الشعر، فطلبت إليهم أن يخلوا سبيله، وأدخلته إلى حجرتها لتسأله عما يريد. أحنى الشاب رأسه وجلس يعبث بيديه ويتململ على مقعده ويلزم الصمت. كانت تنظر إلى جماله الرائع فيدق قلبها دقات عنيفة كأنها أوشكت أن تفتحه لهوى جديد، ثم تذكّرت أحمد ديللو واختفاءه المفاجىء، وبعدها عن إيرل وكلاهما لها صديق وفي، فأطرقت حزينة وقد أخذت العبرات تداعب ناظريها، وإذا بالشاب الأشقر يرفع رأسه وينظر إليها ثم يسألها في رقة بالغة فيمَ يشغل بالها؟

شعرت أدريين بالألفة مع هذا الشخص وكأنهما تعارفا منذ زمن بعيد، ولكنها حبست دمعها ولم ترد على سؤاله، فقال لها إنه قادم من أنقرة وأنه رأى أحمد ديللو هناك، وأنه كلفه أن يبعث إليها بتحيته، ويحثها على المجيء إلى تركيا فإن فيها جمالاً يسحر العقول، وفيها الهدوء والاستقرار بعد ليالي صوفيا وبودابست الساهرة في رقص وخلاعة وخمر ونفاق وخداع، وبعد حياة القلق التي تحياها خشية أن يصيبها بعد سنوات قلائل ما أصاب غيرها من راقصات كن أجمل منها وجهاً وأعظم شهرة، ثم طواهن نسيان (العملاء) بسبب زوال الجمال الأخاذ والشباب الغض. وامتلأت عينا الفتاة مرة ثانية بالدموع، ولكن الشاب عزاها أجمل عزاء، وقال إنه واثق أن طريق تركيا سيصبح مفتوحاً أمامها في أقرب وقت.



دعونا نقف هنا برهة لتوضيح هذه الحلقة من نشاط أدريين، لأن عرض الوقائع سيأخذ منا بعض الوقت قبل الانتهاء من سرد قصتنا كاملة، والتي سميت باسم «لؤلؤة البوسفور»، وهو الاسم الذي عرفت به أدريين بطلة حلقة الجاسوسية في تركيا.

ففي الوقت الذي تجري به أحداث هذا النشاط كان الوضع الدولي مرتبكاً، فالولايات المتحدة كانت قد دخلت الحرب وغزا هتلر الاتحاد السوفياتي وبدت رقعة الحرب تزداد اتساعاً، وامتدت شباك الجاسوسية إلى بلاد جديدة لقربها من ميادين القتال، وكانت أهم هذه الميادين لشبونة عاصمة البرتغال، لمرور الطائرات المتنقلة بين العالمين القديم والجديد بها، وطنجة المنطقة الدولية التي احتلتها إسبانيا وألزمتها صفة الحياد المطلق، وستوكهولم مركز التقاء الشخصيات العالمية المشتغلة بالتجسس على روسيا ودول شمال أوروبا. أما أهم هذه المراكز فكانت إستانبول لأنها ملتقى الشرق والغرب، وكان في القاهرة عدد قليل من هؤلاء الجواسيس ولكنهم كانوا أعظم جواسيس المحور مهارة لوجود قيادة القوات المتحالفة بها، غير أن السلطات العسكرية البريطانية والأميركية استطاعت أن تتعاون مع السلطات المحلية في الضرب على أيدي معظمهم.

بيد أن أهمية هذه الحلقة تبدو في الوصول إلى قرارات مؤتمر طهران، وهي قرارات اتخذت في كانون الأول (ديسمبر) عام 1943 وجمعت بين تشرشل وروزفلت وستالين حيث حددت مناطق نفوذ الدول العظمى.

من هنا تبدو أهمية متابعة أحداث هذه الحلقة لمعرفة في ما إذا وصل أبطالها، وهم من الجواسيس بالطبع، إلى وثائق المؤتمر أم لا.



قلنا قبل قليل أن إستانبول كانت إحدى المدن الرئيسية التي تعج بها شبكات التجسس، لا بل كان فيها أربعة مراكز للجاسوسية، أولها وأعظمها مهارة فون بابن سفير ألمانيا في تركيا، والثاني إيرل الملحق البحري الأميركي في استانبول، أما الثالث والرابع فكانا لبريطانيا والاتحاد السوفياتي، وليس لجواسيس الأخير دور هام في هذه الحلقة.

لقد ثبت أن أحمد ديللو ليس صحافياً ألبانياً ممتازاً، وأن الأموال التي كان ينفقها عن بذخ لم تكن من أرباح الصحافة، ولكنه كان جاسوساً كبيراً يتقاضى أجره من كالتنبرونر رئيس الجاسوسية الألمانية في ذلك الحين. ولم يكن يهوى الراقصة أدريين ولكنه كان (مكلّفاً) بتعقب آثارها لصلتها بإيرل مفتاح الجاسوسية الأميركية في تركيا وما حولها، غير أن الراقصة لم تكن تعرف دوره هذا في أول الأمر، وكان يخيّل إليها أنه رسول الهوى الذي يعبث بالقلوب، وكان جميلاً رقيقاً ينفق عن سعة، وكانت الصلة الغرامية بينها وبين إيرل قد فترت ولم تبق غير صلة المال والعمل وجمع الأنباء من أية جهة.

وهذا هو سبب تودّد أحمد ديللو إلى الراقصة الحسناء، وكان هذا هو شأن سفره إلى استانبول ليلحق بإيرل هناك، فقد أمرته إدارة الجاسوسية الألمانية أن يراقبه ويكتب تقارير وافية عنه وعن اتصالاته، وأن لا يترك صغيرة أو كبيرة إلا ويبعث بها عنه.

لم تكن أدريين تدري أنها أصبحت ذات شأن كبير في عالم الجاسوسية، ولهذا كان وضعها غامضاً عجيباً. فهي تريد الانتقال إلى استانبول لأن أحمد ديللو عشيقها الجديد ينفق عن سعة، كما كانت تريد الذهاب إلى استانبول لأن إيرل يعطيها من المال ما تريد بسخاء.

كما أنها لم تكن تعلم أنها تشتغل في ظاهر الأمر لحساب الحلفاء، وتجمع الأنباء وتعطيها لإيرل سهلة هينة، ولكن أحمد ديللو يأتيها في المساء ويسقيها من الخمر والحب كؤوساً تثمل لها وتفضي إليه بكل ما رأته وسمعته فينقله بدوره إلى فون بابن، فتعود الأسرار التي نقلتها إلى إيرل عن المحور آخر الأمر، مع قليل من تفاصيل الوسائل التي يتجسس بها الأميركيون وغيرهم للاطلاع على نوايا ألمانيا عن الشرق الأوسط. لهذا كله كانت جاسوسية الفريقين تسعى لإحضار الفتاة إلى استانبول دون أن يحس إيرل بخيانتها له، حتى قدر لهما أو لأحدهما آخر الأمر أن تنجح، ورأت أدريين البوسفور لأول مرة فبهتت ناظريها محاسنه، وأفعم قلبها سروراً لقرب التقائها بالحبيب السابق الذي أصبح مستودعاً لا يفنى من المال، وحبيبها الجديد الذي ينفق ويعلمها فنون الهوى دون أن تدرك أنه أخطر في الجاسوسية وأعرق أرومة من إيرل الذي يغدق عليها الدولارات بكثرة.

❁ ❁ ❁

وحسب موعد متفق عليه، وفي مقهى من مقاهي استانبول المطلة على القرن الذهبي ومياه البوسفور، التقت أدريين بالألباني أحمد ديللو، ولأول مرة صارحها الألباني بدوره الخطير، وهددها بالقتل العاجل إن هي أبلغت إيرل شيئاً، وأمرها أن تواصل التجسس له، على أن تعطيه تقاريرها قبل أن ترفعها إليه، وأن تلقاه بعد أي اجتماع جديد بينها وبينه ليعرف كيف تقبل منها تقاريرها الجديدة وماذا قال تعليقاً عليها، وليعرف فوق ذلك، ما هي مهمتها المستقبلية.

لم يكن هذا بالأمر اليسير لعقل راقصة أن تتحمله، فقد أصبحت وسط أخطر شبكة دولية للجاسوسية في العالم دون أن تحس، ولكن

حبها للألباني، وشغفها بالمال تجمعه للمستقبل حين يزول جمال الراقصة ويتغضن وجهها الفتان، كل هذا جعلها تمضي في مهمتها دون أن تبدي لإيرل من أمرها الجديد شيئاً. وسألته عن عمله الجديد في استانبول فقال أنه يشتغل خادماً في السفارة الألمانية في المدينة، فعجبت لاشتغاله في تلك السفارة رغم أنه يتجسس لها، وكان أحرى به أن يبذل جهده ليعمل في سفارة أخرى يستطيع جمع ما يريده من أنباء منها، ولكنه لم يفصح لها عن سبب وجوده في هذا المنصب الغريب، رغم أن الوثائق التي أذيعت بعد الحرب فسرت هذا الغموض، فقد كان مكلفاً فوق تجسسه على إيرل أن يتجسس على فون بابن السفير الألماني لأن هتلر لم يكن يثق به، وكان الفوهرر يعتقد أن السفير يلعب لعبة مزدوجة، فهو يتجسس لألمانيا في ظاهر الأمر ولكنه يتصل اتصالات خفية بإنكلترا ليحدث انقلاباً داخلياً في ألمانيا ضد النازية ويسترد الحكم، كما كان العهد به قبل تولي هتلر السلطة العليا في الرايخ الثالث، وتنصيبه دكتاتوراً على ألمانيا.

في خضم هذا الجوّ التجسسي لم تدرك الراقصة الحسناء بكل هذه الشباك الخطرة حولها إلا بعد أن انتهت مهمتها وانتهت الحرب معها وجلست تستمع إلى أصدقائها السابقين يفسرون لها ما غمض عليها من حوادث تلك الفترة المقلقة للنفس، ولكنها في ذلك الحين كانت فتاة حسناء يستهويها الحب والمال، وكانت تفكر في هذا الأمر قليلاً لكثرة من التفوا حولها من المعجبين الجدد، بعدما عجزت الأفئدة بروعة مفاتنها.



كان دور أحمد ديللو خطيراً بالنسبة لألمانيا، فقد كان يقدم

تقاريره إلى فون بابن ويبعث بصورة أخرى منها إلى كالتنبرونر في برلين عن طريق السفارة الألمانية في استانبول، وهذا فوق ملاحظاته على ما يحدث داخل هذه السفارة، وعلى اجتماعات ونشاط فون بابن. وكانت تقارير ديللو إلى كالتنبرونر ترفع رأساً إلى هتلر لقلقه على مصيره منه ولشدة اهتمامه بما يبديه من نشاط استخباراتي.

ومن المعروف أن انقرة العاصمة الرسمية لتركيا، وعلى هذا الأساس فكل الدول التي تقيم تمثيلاً دبلوماسياً معها لها سفارتها هناك، بيد أن استانبول لا تقل أهمية سياسية عن أنقرة، لهذا نرى أن أكثر السفارات كانت تحتفظ بفرع لها في استانبول على شكل قنصلية عامة لما لهذه المدينة من أهمية دولية، ولقربها من البلقان وإشرافها على البوسفور.

حتى أن أكثر السفراء يقيمون وقتاً في هذه المدينة وما بقي من وقتهم في الثانية، أما إيرل الملحق البحري فكان يتخذ مكانه الدائم في استانبول مطلاً على مضيق البوسفور، وإن كان يضطر بين الفينة والفينة إلى الذهاب إلى أنقرة بالطائرة أو السيارة أو السكة الحديدية، وكان في كل مرة يصحب الراقصة الحسناء معه.

وفي كل مرة كانت تعود إلى استانبول لتقدم إلى ديللو تقارير وافية عن رحلتها واتصالات إيرل برؤسائه، وهي تجتمع بأحمد ديللو سراً في استانبول.

لكن وجودها في استانبول بدل أشياء كثيرة في حياتها، فهي لم تعد تستطيع الاتصال بالعظماء أو قضاء السهرات معهم كما كانت تفعل وهي راقصة مشهورة في بودابست أو صوفيا، فقد أقلعت عن الرقص في الملاهي العامة لريبة السلطات التركية بها، ولخوفها من

الطرد والحرمان من سيول المال التي كانت تتدفق عليها من إيرل وديللو.

وكانت ذروة نجاح أحمد ديللو حين استطاع أن يشتغل خادماً في بيت دبلوماسي بريطاني، وقد هنأه رؤساؤه في برلين واستانبول، وأوصوه أن يقطع صلته بهم زمناً حتى تزول الشبهات عنه ويطمئن الدبلوماسي البريطاني «سيده» الجديد إلى أنه خادم بارع رقيق وليس جاسوساً. ومع ذلك، فقد بدأ القلق يعتري برلين حين أصبح ديللو عاجزاً عن الحصول على شيء جديد من بيت الدبلوماسي البريطاني، فقد كان هذا حريصاً أن لا يلقي ورقة واحدة في سلة المهملات، ولا يتحدث على المائدة أو في البهو مع أحد أمام خادمه، واشتد قلق برلين عندما وصلت إليها أنباء من جواسيسها في أنحاء العالم تقول إن الدول المتحالفة تتأهب لشيء «كبير» ولكنه ليس مفهوماً، وبدأت برلين تتساءل: هل يغزون غرب أوروبا؟ أم يغزون البلقان؟ أو تحتل قواتهم تركيا ويتخذونها قاعدة للزحف منها على البلقان ووسط أوروبا؟ أو يغزون فرنكو ويتخذون من إسبانيا قاعدة جنوبية لغزو فرنسا؟

وبقي أحمد ديللو أسابيع في صمت لا يبعث بتقرير واحد إلى برلين حتى وصلت إلى العاصمة الألمانية رسالة قصيرة منه تقول إنه سمع أن ستالين وتشرشل وروزفلت سيجتمعون قريباً، وأنهم سيعقدون مؤتمراً لدراسة الخطط التي يغزون بها أوروبا ويتغلبون على ألمانيا في أكبر مجهود جوي شهده العالم، أما كيف يفعلون ذلك، ومتى يحدث هذا الاجتماع وأين يكون مقره، فهي أشياء لا يعلمها أحمد ديللو وإن كانت برلين قد بعثت برسلها إليه وعززته بجواسيس مهرة جدد ليستطيع الاطلاع على هذا السر الكبير.

كان أحمد ديللو يدرك خطورة الدور الذي يلعبه للاطلاع على أسرار المؤتمر القادم، فبعث إلى برلين - بدون اطلاع فون بابن - يطلب ثلاثين ألفاً من الدولارات بالعملة الأميركية، وحارت برلين في هذا الطلب وراجعته ولكنه أصر عليه، وقال إنه يريد أن ينفق عن سخاء ليعرف ما سيحدث قريباً.

وفي وثائق وزارة الخارجية الألمانية التي نشرت بعد الحرب أن إدارة الجاسوسية الألمانية ما كادت تطلع على هذا النبأ حتى أبلغته لهتلر، فعقد اجتماعاً للوزارة الألمانية، وكان من رأي ربنتروب وزير الخارجية وجوبلز وزير الدعاية أن النبأ صحيح وأنه يجب أن يرسل المبلغ الذي طلبه أحمد ديللو إليه، أما كالتنبرونر رئيس الجاسوسية فإنه لم يصدق هذا النبأ وقال إنه لم يتلق مثله من أية عاصمة أخرى، وأن صحف العالم كله لم تنشر برقية واحدة تدل على قرب عقد مثل هذا المؤتمر، ولكن هتلر وقواده أرادوا أن يتخذوا لكل شيء أهبته، فبعث كالتنبرونر إلى أحمد ديللو يقول إنه على استعداد لأن يدفع له ما يطلبه بشرطين أولهما أن تظهر في الصحف العالمية إشارة واحدة إلى هذا النبأ لأن وكالات الأنباء ورجال الصحف في أنحاء العالم لن يبقوا على جهل به إلى الأبد، أما الشرط الثاني فهو أن يثبت أحمد ديللو لهم أن في استطاعته الوصول إلى المكان الذي سيعقد فيه المؤتمر أو جمع أكبر قدر من الأنباء عنه إن كان سيعقد في بلد قريب له.

ساور برلين الارتياب في صدق جاسوسها الألباني، ودخل في روع كالتنبرونر أنه لم يعد يستطيع جمع أنباء جديدة منذ التحاقه «بخدمة» هذا الدبلوماسي البريطاني، وأنه يزيف الأنباء والتقارير ليحصل على ما يريد من مال، إلى أن جاءتهم رسالة يقول فيها أحمد

ديللو أنه استطاع أن يصنع مفتاحاً لخزانة الدبلوماسي البريطاني، وأنه يستطيع أن ينقل منها البرقيات والوثائق الأخرى إلى أن تصور وتعاد إليها في اليوم نفسه، وأن أكثر هذه البرقيات والوثائق ليست بالشيفرة، ولكنه في حاجة إلى أعوان ومال وخبراء في التصوير ليستطيع أداء مهمته على أكمل وجه.

كما ازدادت ريبة إدارة الجاسوسية الألمانية به، فبعثت ببعض جواسيسها المهرة إلى تركيا ليتحققوا من الأمر، فعادوا يقولون أن هذا غير معقول «لأن هذا الدبلوماسي البريطاني كبير الحرص، ولم يستطع جاسوس واحد أن ينتزع من شفتيه أو خزانته كلمة واحدة». وبينما كانت برلين في شك من أمر هذا الجاسوس، لا تعرف كيف تنفض يدها منه بدون أن يفشي سرها للعدو، نشرت صحف العالم برقيات تقول «إن الأقطاب الثلاثة سيجتمعون في وقت قريب» وجاء من إدارة الجاسوسية الألمانية السرية في الولايات المتحدة نبأ يقول إن روزفلت والأميرال ليهي وهاري هوبكنز وعدداً كبيراً من الخبراء العسكريين الأميركيين ركبوا البارجة الأميركية «ايرا» إلى جهة غير معلومة!.

شعر كالتنبرونر بأنه ترك الوقت يضيع هباء، فقد أنذره أحمد ديللو بقرب عقد هذا الاجتماع، فارتاب في أمره، وازداد قلقه عندما أنبه هتلر على ما فعل، وبعد أيام قليلة كان جمع من الجواسيس وخبراء التصوير قد وصل إلى تركيا لمعاونة أحمد ديللو في مهمته، وكان معهم أكبر قدر من المال استطاع أن يحظى به جاسوس يومذاك.



أما الدبلوماسي الأميركي إيرل فكان لا يزال في تركيا كثير

التردد على أنقرة. وكانت أدرين قد اتخذت لنفسها دوراً جديداً هو أن تكون الصلة بين أحمد ديللو والجواسيس الألمان الجدد مع مضيها في إرسال التقارير إلى إيرل، ولكن تقاريرها إليه كانت تافهة أو زائفة، وكان هدفها الأوحد من اتصالها به هو أن تجمع أنباءه ونشاطه وتضعها في تقاريرها الخاصة لتستحق عنها أجراً كبيراً من المال ثمن أتعابها.

في هذه الأثناء وردت إلى برلين أنباء من جواسيس أوروبيين في القيادة البريطانية العليا في القاهرة تقول إن أقطاب الدول الكبرى سيعقدون مؤتمرات متعددة، سيكون أحدها في القاهرة وقد يكون الآخر في طهران ليستطيع ستالين أن يحضره.

وبعد فترة جاءت التقارير إلى برلين تفيد أن بعض هذه المؤتمرات عقد في أماكن شتى من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وأن لندن وموسكو وواشنطن قد تبادلت مذكرات شديدة الجفاء، وأن ستالين طلب أن تغزو الدول الغربية فرنسا ليخف عبء الحرب فيها عن عاتق روسيا لأنها تحارب الجيش الألماني وحدها، وأن تشرشل يعارض غزو فرنسا قائلاً إن هذا سيملأ ساحل أوروبا الغربي بجثث الضحايا من خيرة شباب بريطانيا وأميركا ويصبغ بحر المانش وخليج بسكاي بدماء أعظم ما لدى الغرب من قوات، ثم اقترح مهاجمة ألمانيا من الجنوب، أي من إيطاليا والبلقان، وأن تحشد أميركا قواتها البحرية والبرية في البحر الأبيض وأن تكون محطات الغزو الأولى هي جزر كريت والدوديكانيز في شرق هذا البحر، وصقلية في وسطه، على أن تغزو قوات الحلفاء بعد ذلك إيطاليا واليونان ثم تنتقل منهما إلى وسط أوروبا.

ولكن الروس عارضوا نزول قوات الدول الغربية في البلقان لأنه منطقة نفوذهم، وبدأت تظهر في الأفق علامات تدل على أن هناك خلافاً كبيراً بين وجهات النظر السوفياتية والبريطانية، وهنا بدأت ألمانيا تأمل أن يؤدي هذا الشقاق إلى عقد صلح منفرد مع هذه الدولة أو تلك، وإلى تصدع جبهة الحلفاء. ولكن لا بد من أنباء يوثق بها للاطلاع على هذه التطورات السياسية الهامة يوماً بعد يوم، فبعثت إلى أحمد ديللو بأموال وخبراء لأجل ذلك.

وتوالت أنباء مؤتمر طهران بعد ذلك مؤيدة وجود هذا الخلاف الكبير. فقد كانت أكثر الاجتماعات تعقد في السفارة الروسية الملاصقة للسفارة البريطانية لا يفصلهما سوى شارع واحد، وكان شارعا «فردوسي» و «استانبول» في العاصمة الإيرانية قد تحولا إلى أكبر مركز للنشاط الحربي والدبلوماسي.

وفيما يختص بمهمة أحمد ديللو فقد كانت تتبع ما يصل من طهران إلى الدبلوماسي البريطاني في أنقرة من أنباء، وأن يسرق وثائقه كل يوم ويصورها ويعيدها إلى الخزانة بعد وقت قصير. وكان يعاونه في هذا الأمر خيرة جواسيس الرايخ الثالث، وإذا بهذه التقارير تقول إن تشرشل أطلق على مشروعه اسم «اوفر لورد» أي السيد الأعلى، وأن جدلاً شديداً كان يدور بين روزفلت وتشرشل بشأنه، فقد كان الأول حكيماً يريد أن يجامل ستالين لفداحة العبء الواقع على عاتق روسيا، بينما كان تشرشل يفكر في البحر الأبيض والإمبراطورية البريطانية وحدها مع ترك ستالين وهتلر يحترقان معاً في ميدان القتال.

كما تسربت أنباء المؤتمر الثلاثي في طهران تفيد أنه تشعب خلاف بين ستالين وتشرشل على هذا الاقتراح، وكان ستالين يريد أن

يبعد القوات البريطانية والأميركية عن البلقان جهد الطاقة وأن يصرفها إلى محاولة غزو غرب فرنسا لتسرع قوات من الجبهة الروسية إلى أوروبا الغربية فيخف العبء عن الجيش الأحمر.

أخذ هذا الجدل يشتد بين ستالين وتشرشل في ما كان روزفلت يلزم الصمت، ولكنه كان ينفرد بتشرشل ويحاول إقناعه بصواب رأي ستالين وضرورة مجاملته، ولولا وجود روزفلت لفشل المؤتمر ولما نجحت للحلفاء خطة ولما انتصروا على ألمانيا.

وحين لاح شبح الفشل في جو المؤتمر وأحس الروس بعناد تشرشل وخبث مطامعه الخفية، قال ستالين أنه ما زال في وسع الاتحاد السوفياتي أن يعقد صلحاً مع ألمانيا وأن يتركها تنصرف إلى محاربة بريطانيا بكل قوتها، وأن روسيا تفضل هذا على أن ترى القوات البريطانية متوغلة في البلقان لأن هذا الميدان من «اختصاص» الجيش الأحمر، أما ميدان غرب أوروبا فإنه من «اختصاص» القوات البريطانية لأنه أقرب إلى شواطىء بريطانيا، ولكل دولة أن تهتم بالمناطق القريبة منها. ويوماً عن يوم، كانت تصل هذه التقارير بمعلوماتها الوافية، إلى برلين بواسطة شيفرة وبرقيات السفارة الألمانية في تركيا، حيث كانت هذه هي الوسيلة السريعة الوحيدة التي تصل بها الأنباء إلى العاصمة الألمانية، وإن كان هتلر لا يزال يرتاب في نيات فون بابن سفيره هناك. وسر هتلر وارتاح فون روبنتروب وزير خارجيته لهذا الخلاف وعقدا الآمال الكبيرة عليه، ظناً منهما أن المؤتمر سينتهي بالفشل، وأن ستالين سينفض يده آخر الآمر من التحالف مع بريطانيا وأميركا ويعقد صلحاً منفرداً مع ألمانيا، على أن يقتسما أوروبا والشرق الأوسط في أول جولة من جولات تقسيم العالم بين الدولتين. وهكذا مضى هتلر في أحلامه المأثورة وخياله الواسع البعيد.

أما روبنتروب فقد كان يصور له هذه الأحلام بصورة الحقائق القريبة التحقيق تملقاً له، وكان الوزير الألماني في أشد الحاجة إلى إرضاء الفوهرر والتملق له وإقناعه بأنه أعظم عبقري سياسي رمزي أنجبته هذه الأرض ليحتفظ بمنصبه على رأس الدبلوماسية الألمانية إلى أكبر وقت ممكن.

❁ ❁ ❁

في هذه الأثناء انقطعت أخبار ديللو عن أدريين وعن أعوانها من الخبراء والجواسيس الألمان في تركيا أياماً قليلة، وشعرت برلين بقلق شديد أول الأمر، ولكنها كانت قد تعلمت من دروسها السابقة أنه رجل يوثق به، ولولاه لما عرفت أكثر أنباء مؤتمر طهران ونشاط الدول الكبرى في الشرق الأوسط. بيد أن أحمد ديللو التقى بأدريين سراً ليقول لها أن لديه تقارير خطيرة للغاية وأنه لا يستطيع أن يسلمها إياها خشية أن يعرفها «إيرل» الملحق البحري الأميركي، وأنه يفضل أن يلتقي برؤساء الجاسوسية الألمانية الذين قدموا إلى تركيا في عهد قريب، وكانت الراقصة هي التي تؤدي مهمة الرسول بينه وبينهم في الأسابيع الأخيرة.

ودبر أقطاب الجاسوسية الألمانية في الشرق الأوسط اجتماعاً بينهم وبين أحمد ديللو، فأبلغهم أن مؤتمر طهران انتهى إلى زوال الخلاف بين تشرشل وستالين، وأنه استطاع الحصول من خزانة الدبلوماسي البريطاني على خلاصة لنتائج المؤتمر، ولكنه لن يسلمهم تقريره إلا مقابل مائة ألف دولار لأنه سئم حياة الجاسوسية ويريد أن يعيش من موارده المالية الخاصة واستثماره لها بعيداً عن هذا الجو الخطير المريب.

وقد أجاب أقطاب الجاسوسية الألمانية أنهم لا يستطيعون أن يعطوه مثل هذا المبلغ الكبير إلا بعد التشاور مع برلين، ولا سيما أنه يطلبها دولارات أميركية لكي لا يشتبه في أمره أحد.

بعد أيام كانت طائرة ألمانية خاصة تحط في استانبول حيث أوصل مسؤول ألماني كبير مبلغ المائة ألف دولار وعاد إلى برلين بالتقرير القنبلة!!؟.

في أثناء ذلك بدأ «إيرل» يكتشف خيانة أدريين له، وبدأ يعطيها أنباء ملفقة، مثل الأنباء الزائفة التي كانت تسلمها له، وبدأ الدبلوماسي البريطاني يحس بالجاسوس الذي دخل بيته خادماً ونقل أكثر أسراره إلى ألمانيا، واستقر الرأي بعد اتصالاته بين خبراء الجاسوسية الإنكليز والأميركيين على أن يتخذوا أحمد ديللو والراقصة الحسناء أداة للتغرير بهتلر وجواسيسه إلى أن يبدأ الغزو، فوضع الدبلوماسي البريطاني في خزانته تقارير زائفة واضحة عن نتائج مؤتمر طهران والجهة التي سيفتح فيها الحلفاء الجبهة الثانية لمعاونة روسيا.

كان مؤتمر طهران قد اهتدى بعد جدل شديد إلى الاتفاق على القواعد التالية في كانون الأول (ديسمبر) 1943:

1 ـ أن يفتح الحلفاء الغربيون جبهة ثانية في فرنسا حينما تسمح الظروف بذلك.

2 ـ أن يعقد مؤتمر ثان لينظم سياسة أوروبا بعد النصر.

3 ـ أن تقسم ألمانيا إلى مناطق احتلال بين الدول الأربع الكبرى بعد هزيمتها.

4 ـ أن تحدد مناطق النفوذ بين بريطانيا وروسيا في أوروبا حتى لا يحدث صدام بينهما في المستقبل.

يمكن القول إن هذه هي النتائج التي استقر عليها الرأي في

مؤتمر طهران (ولم تعرف رسمياً إلا بعد الحرب)، أما الدبلوماسي البريطاني فقد وضع في خزانته النص الحقيقي للمحادثات التي دارت بين تشرشل وستالين وروزفلت للتغرير بالجاسوس القابع في داره، ولكنه وضع معها نتائج زائفة للمؤتمر، أهمها أن الرأي استقر على غزو البلقان أولاً والوصول منه إلى وسط أوروبا.

وكما سبق وذكرنا، سلم أحمد ديللو إلى مبعوث هتلر هذا التقرير وتسلم منه مائة ألف دولار، وكان التقرير كاملاً بخاتم الدبلوماسي البريطاني مكتوباً على أوراق رسمية بريطانية، فلم يبق شك لدى وزارة الخارجية الألمانية في صدقه، لهذا لم تصدق الجواسيس الآخرين الذين قالوا إن الجبهة الثانية ستفتح في غرب أوروبا وليست في البلقان كما قال أحمد ديللو.

وأسرعت القيادة الألمانية إلى نقل قوات كبيرة من فرنسا إلى جبهة النمسا ووسط أوروبا والبلقان لتكون قريبة من ساحل اليونان وتركيا، وفي ذلك الوقت نفسه بدأت القوات البحرية والجوية والبرية الأميركية والبريطانية تنزل على شاطىء فرنسا من عدة جهات، فنجح الغزو في مرحلته الأولى، ولولا هذا التقرير الزائف لما نقل الألمان قواتهم من غرب أوروبا إلى جنوبها الشرقي ولما نجحت خطط الغزو في مراحلها الأولى.

وأخيراً.. وإن يكن متأخراً، أدرك النازيون أن أحمد ديللو غرر بهم أو خدعه الجواسيس الإنكليز والأميركيون فعقدوا العزم على الانتقام منه، ولكنه كان قد فر من تركيا إلى أميركا الجنوبية مع الراقصة الحسناء أدريين ليقضيا ما بقي من حياتهما في هدوء بعيداً عن أخطار الجاسوسية والسياسة الدولية.



أدريين، كما عرفت، «لؤلؤة البوسفور»، نموذج للمرأة اللامبالية، كائناً منعزلاً ليس له من سلاح سوى سحره الجنسي، جاعلة من نفسها متاعاً وفريسة سلبية، تفيد الرجل بالرغبة التي تثيرها في نفسه.

إن هذا الصنف من النساء أناني النفس، لا تهمه نوعية العمل الذي يقوم به، سوى أن يكون مرفهاً متمتعاً بالمال والحب. وإذا كان العشيق الأميركي «إيرل» قد أغدق عليها المال والحب، فإن أحمد ديللو قد فعل كذلك، مع أنه شاب صغير قياساً لإيرل، بيد أن أدريين كانت تطلب المال من هذا أيضاً. ولو أن الخاتمة أتت تتويجاً لزواجهما معاً، فإن تقارب المصلحة والمصير الواحد الذي بات يهددهما هو الذي ختم هذه النهاية.

ومع ذلك، فقد كانت أدريين امرأة ذات إرادة محبة للسيطرة، لم تتردد إلا قليلاً في مجابهة الرجل، فهي لم تكن تريد أن ينتقص من قدرها كامرأة وإن كانت حريصة على المحافظة على شخصيتها المستقلة. وهي لم تتردد من إظهار رغبتها الجنسية للرجل بل كانت تجد مقاومة أقل من المقاومة التي تجدها العذراء الخجول قبل بدء العلاقة الجنسية مع الذكر. إن المرأة العادية ذات الميول الحيوانية لا تشعر بالإهانة من جراء الجماع، على عكس المرأة المثقفة المفكرة التي تحتج عليه لأنها واثقة من نفسها وذات طابع مقاومة، ولذلك فهي تندفع في سجال مع الرجل لا تعلم كيف تنتهي. ومن الأمثلة التي تضرب عن قوة شخصية المرأة المستقلة أن مدام دوستايل لم تنشد سوى في أواخر أيامها عشاقاً يتمتعون بالشباب والجمال. لقد كانت تسيطر على جميع الرجال بقوة تفكيرها وتتقبل إعجابهم بها بكبرياء وأنفة، ولذلك لم تكن تشعر أبداً بشعور الفريسة بين ذراعيهم.

وسواء انسجمت في دورها السلبي أم لم تنسجم، فإنها تشعر على الدوام بالحرمان كفرد له فعاليته. ولعله من عجائب الأمور أن الرجل يعيش في عالم مليء بالنعومة والرقة في عالم المرأة بينما تتيه المرأة على غير هدى في عالم الذكور الخشن القاسي.

إذا كان أحمد ديللو قد تزوج من أدريين فإن الإثنين في وضع متشابه من حيث قبولهما للتجسس، بقصد المنفعة المادية، ولهذا يشق على أمثال هؤلاء الرجال أن نطلب منهم تحديد وجهة نظرهم وأن يعرفوا سابقاً أنه يجب عليهم الاستعداد للمعركة في مكان معين ويوم معين وساعة معينة.

ومثل هؤلاء الناس إذا ما أحبت إحدى هؤلاء النساء رجلاً منهم كانت ملكه لوحده بكلتيها، طالما استمر هذا الحب، فلا تتركه إلا في اللحظة التي تضطر فيها لتركه. ولهذا لا تتحول حريتها إلى إباحية قط وذلك بفضل هذا التعلق بالشرف.

أرسولا ريختر(*)
Ursula Richter
(-   )

هي إحدى جاسوسات ألمانيا الشرقية في ألمانيا الغربية، وكانت سكرتيرة في مكتب منظمة الألمان المطرودين «المبعدين» من بولندا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي. وهربت إلى ألمانيا الشرقية بمساعدة رئيس فرع مكافحة الجاسوسية في ألمانيا الغربية هانز تيدجي.

إن الجاسوسة الهاربة **أرسولا ريختر** قد تقمصت شخصية امرأة سافرت من مدينة فرايبورغ الألمانية الغربية في العام 1964 إلى ألمانيا الشرقية ومن هناك سافرت إلى كندا قبل أن تعود ثانية إلى ألمانيا الغربية. وهذا الخط من الانتقال غير المباشر عبر الحدود تفضله مخابرات ألمانيا الشرقية في عمليات زرعها للجواسيس. والسكرتيرة الهاربة أرسولا ريختر كانت مصابة بالسكري كما أن إحدى ساقيها مبتورة وتمشي على العكاز الذي استعملته 12 سنة في خدمة منظمة الألمان المبعدين الذين كانت تجمع المعلومات عنهم وتنقلها إلى

(*) **المرجع**: سعيد الجزائري. «المخابرات والعالم». دار الحياة. بيروت 1988. ص308.

المخابرات في ألمانيا الشرقية. وأكدت المخابرات الألمانية الغربية أن مهمتها كانت تتعدى ذلك بحيث أن عملها الأساسي كان بمثابة الخيط الذي يربط بين أنشطة الجواسيس الألمان الشرقيين العاملين في غرب ألمانيا. وقد أثارت تحركات أرسولا منذ آذار (مارس) 1985 شكوك المخابرات الألمانية الغربية التي بدأت تلاحقها وتحصي عليها تحركاتها. وقد علم تيدجي عن تلك الملاحقة «أي وضعها تحت المراقبة» فسرب لها أمراً بالفرار إلى ألمانيا الشرقية قبل افتضاح أمرها ففعلت. ثم أوعز إلى سونيا ولورينز باللحاق بها ومن ثم التحق هو بسفر «الخروج» خوفاً من انكشاف الحقيقة. وحول هذه المواضيع المتلاحقة للجاسوسية الشرقية قالت وسائل إعلامية في الغرب أن زرع جواسيس في مكاتب صانعي القرار في ألمانيا الغربية لا يدل على نيات حسنة بقدر ما يثبت سوء نية الشرق الشيوعي خصوصاً بعد هروب السكرتيرات وتيدجي الذين زرعوا سابقاً بتنسيق فاعل لاصطياد الطرائد الثمينة التي تلاحقها المخابرات السوفياتية وحتى الوزراء الألمان الذين يؤثرون الرجال على السيدات في أعمال السكرتاريا، باعتبارهم أقل تعرضاً للمغريات والانجذاب العاطفي لم تسلم نشاطاتهم وتحركاتهم من العيون الكاشفة للأسرار. وهنا تبرز فضيحة غونتر غيوم الشهيرة التي تتلخص في زرع ضابط من جيش ألمانيا الشرقية في وظيفة مرموقة حتى أصبح الساعد الأيمن لرئيس الدولة في حينه ويلي برانت، مما تسبب بسقوطه وإصابة العلاقات بين البلدين بجفاء لمدة غير قصيرة من الزمن. والحزب الديمقراطي الاشتراكي المعارض كان في الحكم إبان قضية غيوم وما زال واقعاً تحت تأثير تلك الفضيحة.

أستير بوسندورفير(*)
(Astaire Pösendorver)
(- 1903)

هي إحدى أبرز جاسوسات الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية، والمعروفة باسم «سيسي». بولونية الأصل، في الحادية والأربعين من العمر. تركت ألمانيا عند صعود النازية إلى الحكم. وصلت إلى جنيف سنة 1935 برفقة زوجها هنريش، حيث سكن وحده في برن.

في هذه الأثناء وجدت أستير عملاً مؤقتاً كمترجمة في مكتب العمل الدولي. وكانت في سنة 1939 تحمل شهادة (الليسانس). وسكنت في منزل مع شخص اسمه «م. بوسوندورفير» وحملت اسم عائلته... وفي هذا المنزل استقبلت «رادو» (أحد مؤسسي الشبكة في سويسرا لمصلحة الاتحاد السوفياتي) وعرّفته على «بول بوتشار» وقدّمته له على أنه زوجها. وكان بوتشار عضواً في اللجنة التنفيذية للكومنتيرن

(*) المرجع:
«Les grands espions de la seconde guerre mondiale». Sous la direction a'Albert Demazière (Tome 1). Éditions R.Y.B., Genève 1974. p132 - 146 et 197.
«الجواسيس الكبار في الحرب العالمية الثانية» الجزء الأول. جنيف 1974. ص132 ـ 146 و 197.

في الاتحاد السوفياتي، ولم يكن عمره أكثر من ثلاثين سنة. ولد في لايبزيغ عام 1891. ووصل إلى سويسرا دون بطاقة إقامة، وبشكل غير شرعي، والتقى أستير. هذا في الوقت الذي كان يعرف فيه أن رادو موجود في جنيف منذ مدة طويلة. . . وكذلك كانت أستير تعرف.

ونظراً لنشاط أستير وموهبتها، أعطاها المركز اسم «سيسي». وبالفعل، برهنت سيسي عن ذكاء خارق وديناميكية فائقة في العمل لمصلحة الاتحاد السوفياتي. حتى أنه يعود إليها الفضل في التحديد الدقيق لتاريخ الهجوم الهتلري ضد الاتحاد السوفياتي في الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو سنة 1941. لكنها اعتقلت فيما بعد في 19 نيسان/ أبريل سنة 1944 وأودعت السجن، ثم أطلق سراحها لتعيش في برلين، على أراضي جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

إسفير غريغورييفنا يورينا(*)
(Espher Griegoryifna Uoryna)
(- 1923)

هي إحدى جاسوسات الاستخبارات السوفياتية، وخريجة «مدرسة غازينا» للتجسس،حيث اشتهرت تحت إسم: ريتا إليوت. زرعها السوفيات في أوستراليا فحصلت على أسرار المحطة الذرية بالتنويم المغناطيسي.

ففي نيسان (ابريل) عام 1954 انحاز محلّل الشيفرة لدى السفارة السوفياتية في سيدني ويدعى فلاديمير بتروف وزوجته بفدوكيا إلى الغرب. وقام باختطافهما ضباط أمن أوستراليون من أيدي المرافقين السوفيات بينما كانوا يقومون بإعادتهما إلى روسيا.

وعقب ذلك فضح بتروف شبكة التجسس السوفياتية في أوستراليا ومزق نشاطها هناك.

لكن عدداً من عملاء الشبكة المقيمين الذين لم يكونوا على أي

(*) المرجع: ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس». ترجمة غسان درويش. الدار الوطنية للطباعة والنشر. بيروت 1963. ص159 ـ 166.
و«الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت 1988. ص328 ـ 332.

اتصال بالسفارة السوفياتية أو بأي من منظمات التجسس التي افتضح أمرها تابعوا إرسال التقارير إلى موسكو. إلا أن المعلومات الضئيلة التي كانت ترد إلى مقر قيادة دائرة الاستخبارات في موسكو لم تكن كافية.

ولتعويض الخسارة التي تسبب بها فلاديمير وبفدوكيا بتروف شرعت موسكو في بناء شبكة تجسس جديدة. فقد كانت «وواميرا» محطة أبحاث سريعة النمو للصواريخ الموجهة وللنمو النووي والروس يريدون أسرارها، وليس ثمة وقت للإضاعة. وكان عملاء «غازينا» ـ وهي مدرسة تدريب الجواسيس السوفيات ـ السريون المدربون قد أرسلوا إلى أوستراليا. ولكن مكافحة الجاسوسية الأوسترالية كانت ساهرة على مراقبة الجاسوسية بدقة متناهية لدرجة أن أي وجه جديد يظهر في المنطقة كان محط شبهة أوتوماتيكياً، فبعث العملاء السوفيات بتقارير تفيد بأن أية محاولة لبناء شبكة تجسس أخرى سوف تكون في غاية الخطورة. وهكذا قرر رؤساء دائرة الاستخبارات السوفياتية الانتظار ريثما يهدأ التوتر. وقد كشفت تقارير الاستخبارات في موسكو بأن بعض أولئك الجواسيس المستخدمين حديثاً في أوستراليا لم يحركوا ساكناً مدة تسعة أشهر قبل أن يتجرأوا على بدء العمليات، وخلال تلك الفترة أوجدوا لأنفسهم أعمالاً لأن من ينفق مالاً دون عمل يلفت إليه انتباهاً غير مستحب.

وكانت ريتا إليوت إحدى الجواسيس الجدد الذين عينوا في أوستراليا، وقد أوجدت لنفسها تغطية رائعة بعدما أمضت فترة تأقلم لمدة ثلاثة أشهر. وكان اسمها الحقيقي اسفير غريغوريفنا يورينا من مواليد موسكو عام 1923، وهي ابنة فنان في السيرك يدعى غريغوري ايفانوفيتش يورين وقد التحق بسيرك موسكو الحكومي في الثلاثينات.

أما أمها فكانت فنانة تشكيلية معروفة. وقد أوصى بها منظم حزبها على أنها «صالحة للأعمال الخارجية» فأرسلت عام 1943 إلى دراسة خاصة. وأدخلت عام 1945 معهد غازينا للتجسس تحت رقم «الف 450110/ 215 جيم». واعتباراً من ذلك اليوم عرفت باسم «ريتا إيليوت». وكان رأي «زارعيها» أن امتلاكها لمنوعات فنية سيكون أفضل تغطية لعملها المستقبلي في الخارج. وهكذا اتقنت في «غازينا» عملاً من أعمال السيرك وهو المشي على الحبال.

وبرغم ساعات التمرين اليومية درست ريتا بقوة وحصلت على علامات قياسية في جميع المواضيع. فقد نص أحد تقارير نجاحها الذي أرسل إلى مقر قيادة دائرة الاستخبارات في موسكو على الآتي:

«لدى هذه الطالبة مقدرات غير اعتيادية ليس بالنسبة إلى ما يتعلق باللغة فحسب ولكن في حقول أخرى من الدراسة المتفهمة أيضاً. فقد خلقت لتكون عميلة وسوف تتعدى أعلى تقديراتنا في نطاق مهنتها في المستقبل...».

ولم يكن لتقدمها في اللغة والتأقلم العام سابق مثيل. فبعد أربعة عشر شهراً فقط أصبحت تتكلم وتتصرف وكأنها ولدت في وطنها «بالتبني» أي أوستراليا، وكان جميع معلميها متفقون على أن لهجتها رائعة.

أجرت ريتا فحصها النهائي في غازينا بتفوق. وبعد عدة أيام دبرت دائرة السفر أمر إقامتها في أوستراليا. وهربت إلى أوستراليا في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) عام 1955، ثم انتقلت إلى آدلايد حيث بقيت تتأقلم ثمانية أيام.

التجسس بالتنويم المغناطيسي

كانت محطتها التالية ملبورن، وقد جاءتها بحجة البحث عن عمل، حيث فرص العمل متاحة ومتوافرة أكثر. ونزلت في بيت ضيوف محترم يؤمه الفنانون، فأمضت أسبوعاً في التعرف على ملبورن كما سجلت اسمها لدى وسيط عمل. وأرسلت إلى موسكو ما يأتي:

«سجلت نفسي لدى صاحب عمل. أجرى لي تجربة وتأثر بمقدراتي، ووقع لي عقداً. إنه متأكد تماماً بأنه سوف يوظفني قريباً».

أما رسالة ريتا التالية فقد نصت على أنها عملت في ملبورن حيث لقيت ترحيباً. ومن البديهي أن موهبتها الفنية حملتها إلى سيدني وكانبيرا وغيرهما من المدن الرئيسية في أوستراليا.

وما أن استقرت حتى رفعت مستوى نشاطاتها التجسسية. وخلال وقت قصير نسبياً ضربت طوقاً تجسسياً واسع الانتشار. وبسرعة بدأت تبعث برسائل عالية السرعة وبميكرو أفلام عن وثائق سرية إلى مقر قيادة دائرة الاستخبارات السوفياتية. كما ركزت على تحصيل معلومات نووية وغيرها غاية في السرية. وقد قابلت بمساعدة الوسطاء رسميين وأصحاب نفوذ عديدين ممن لديهم الأولوية في معرفة تطورات العمل في «ووميرا» وفي مراكز الأبحاث. أما طريقتها في استخلاص المعلومات من أشخاص شفاههم محكمة الإغلاق فقد كانت واسعة الحيلة وأكثر من خيالية. ولكن دعونا نورد النص الحرفي لتقرير للاستخبارات السوفياتية عن ريتا إليوت:

«بمساعدة نظرتها الحكيمة للأمور وجدت أمر مهاجمة الرجال سهل نسبياً. فبعد أن يشاركوها الشراب في النوادي يتقبلون دعوتها للذهاب إلى شقتها. وهناك تغرقهم بمشروبات تكون مزجتها بمخدر

يضعف إرادتهم بصورة مؤقتة حيث تستطيع بعد ذلك تنويمهم مغناطيسياً موحية إليهم بأنهم إنما يقومون بأداء تقارير إلى رؤسائهم، فتستجوبهم بخبرة بحيث يتكلمون بحرية كما أثبتت التسجيلات البالغة الأهمية.

أما الميزة الرئيسية لهذه الطريقة فهي حمل الضحية على نسيان كل ما تفوه به والإيحاء إليه أثناء إيقاظه وقبل إعادته إلى حالة الوعي الطبيعي بأنه كان يشرب معها فقط».

ويذكر التقرير نفسه طريقة أخرى مرادفة للأولى:

«إذا كان الشخص قد خدر بمقدار مناسب وأصبح مستعداً للاستجواب فمن الممكن حقنه بمخدر الحقيقة حيث تعطي هذه الطريقة في حالات كثيرة نتائج مرضية».

ولكن التقرير لا يحدد ما إذا كانت ريتا إليوت اتبعت هذه الطريقة وكانت مقدرتها على تنويم ضحاياها مغناطيسياً وسحب المعلومات البالغة السرية منهم هي الطريقة الوحيدة التي جمعت بواسطتها المعلومات لمدة خمس سنوات تقريباً مرضية رؤساءها كل الرضى دون إثارة الشبهات.

ولكن برغم مهارتها وبعد نظرها لم تستطع التهرب من انتباه مكافحة الجاسوسية الأوسترالية إلى الأبد. فقد لوحظ بأن مداخلاتها غالباً ما كانت مع شخصيات بالغة الأهمية وعلى ارتباط بطريقة أو بأخرى ببحث ذري أو بعمل سري. وبعد تحقيق خاص مع تلك الشخصيات أكد كل منهم بأن علاقته بريتا كانت اجتماعية ومحض شخصية. وقد أيد كل منهم أقوال الآخرين بأن ريتا لم تذكر إطلاقاً أية أمور سياسية أو أبحاث عامية.

العودة إلى الفن

وتلقى عميل الاستخبارات السوفياتي المولج بمراقبة أمن عملاء التجسس العاملين في أوستراليا تحذيراً بأن ريتا إليوت وضعت تحت المراقبة. وأخطرت ريتا موسكو في الحال ولكن بدلاً من أن يرسل في طلبها فتعطي السلطات الأوسترالية بذلك تأكيداً ملموساً بأن شكوكها في محلها فقد أخطرت ريتا بترك كل نشاط تجسسي فوراً وبإبلاغ مساعديها بعدم القيام بأي نشاط حتى إشعار آخر. كما أمرت بنقل الراديو ومعدات التصوير إلى مكان أمين. وأبلغت بضرورة الاستمرار في عملها كفنانة منوعات كما لو أن شيئاً لم يحدث.

وبرغم الرقابة المشددة التي فرضت عليها فقد دبرت أمر اتصالها بعملائها ومخبريها والتخلص من كل معدات التجسس. واكتشفت ريتا الميكروفونات الملصقة في شقتها والتي دست من قبل ضباط مكافحة التجسس الأوستراليين. ولكنها تصرفت وكأنها غير عالمة بهذه التدابير، فلم تستطع مكافحة التجسس إثبات أية تهمة عليها، ولكنها أبقت طوق المراقبة شديد الإحكام حولها.

ونظراً لتلك الظروف رأت موسكو أن لا جدوى من إبقاء ريتا في أوستراليا، فاستدعتها لمهمات أخرى.

ففي كانون الثاني (يناير) عام 1961 تلقت ريتا إليوت عروضاً «حقيقية» من الهند وباكستان ودول أخرى للعمل في منوعات من الدرجة الأولى وفي استعراضات سيركات، وقبلت ريتا وتركت أوستراليا في شهر شباط (فبراير) من عام 1961.

طافت ريتا إليوت الهند ولكنها لم تقم بأية نشاطات تجسسية، وسافرت بعد ذلك إلى باكستان حيث اختفت عن الأنظار.

ألكسندريا لنكولن(*)
(Alexandria Lincoln)
(- 1952)

أميركية الجنسية. تعمل في العاصمة السويسرية برن، في بار في قلب العاصمة. أطلق عليها اسم «ماتاهاري الجديدة» (ماتاهاري هي الجاسوسة الهولندية التي عملت في المخابرات الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى، وأطبقت شهرتها الآفاق). تبلغ من العمر ثلاثين سنة وهي متهمة بالتجسس لدولة عربية. والتهمة التي وجهت إليها أنها أعطت إحدى الدول العربية معلومات سرية حساسة مقابل مبالغ من المال كانت تتسلمها على دفعات.

وكانت الآنسة لنكولن تعمل في فندق فخم مجاور للبرلمان السويسري، حيث تؤمّه شخصيات سويسرا السياسية من جميع الاتجاهات. ولهذا فالآنسة لنكولن مفضلة لدى السياسيين والصحفيين الذين يركضون إلى بارها عندما تنتهي جلسات البرلمان.

هذا وقد شهدت محكمة سويسرا محاكمة ألكسندريا التي قبض عليها في شهر أيار (مايو) 1982 وهي تتسلم مبلغ سبعة آلاف دولار

(*) **المرجع**: الحوادث. العدد 1377. الجمعة 25 آذار 1983. ص12 ـ 13.

من قائم بأعمال إحدى الدول العربية، أي ما يوازي 14 ألف فرنك سويسري، لقاء المعلومات التي قدمتها.

وتحدث ناطق باسم وزارة العدل السويسرية وقال إن القائم بالأعمال تسلم «المعلومات» منها في برن، مما دفع بسويسرا إلى إعلانه «شخصاً غير مرغوب فيه».

إليزا مانينغهام بولر(*)
(Eliza Maningham Boler)
(-   )

هي رئيسة الاستخبارات البريطانية. وقد اعتبرت إليزا مانينغهام ـ بولر رئيسة جهاز الاستخبارات الداخلية في بريطانيا (آم آي 5) [في حزيران (يونيو) 2003] أن إمكان وقوع هجوم إرهابي باستخدام الأسلحة البيولوجية والكيماوية أو النووية على مدينة غربية، «ليس إلا مسألة وقت». وأكدت أن تنظيم «القاعدة» لا يزال قادراً على تنفيذ هجمات «قاتلة».

وفي غضون ذلك، كشف تقرير صحافي في طوكيو أن عضواً بارزاً في تنظيم «القاعدة» اشترى ألف جهاز لاسلكي من اليابان عام 1995، استخدم بعضها في محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك عام 1995 في أديس أبابا.

وقالت مانينغهام ـ بولر في مؤتمر نظمه المعهد الملكي للدراسات الدفاعية في لندن: «نحن نواجه احتمالاً واقعياً بوقوع هجوم غير تقليدي بأسلحة كيماوية أو بيولوجية أو نووية»، مشيرة في الوقت نفسه إلى أن «الأسلحة التقليدية مثل القنابل والعمليات الانتحارية لا

(*) **المرجع**: الحياة. الأربعاء 17/ 6/ 2003. ص1 و 6.

تزال المفضلة لدى المجموعات الإرهابية». ورأت أن «تهديد الإرهاب العالمي سيبقى معنا زمناً طويلاً. وإذا كانت حربنا معهم يمكن الفوز بها، فإن ذلك لن يكون قريباً».

كذلك كشفت المسؤولة البريطانية، أن علماء «منشقين» زودوا جماعات إرهابية معلومات يحتاجون إليها لصناعة أسلحة غير تقليدية. وأكدت صعوبة «إزالة الارتباط الوثيق بين الإيديولوجيا الدينية والإرهاب». واعتبرت أن «القاعدة» هي أول «تهديد حقيقي في العالم»، مشيرة إلى أن هجمات الدار البيضاء والرياض أثبتت ذلك.

ونقلت وكالة «كيودو» للأنباء عن مصادر قريبة من التحقيق في قضية بيع أجهزة لاسلكية إلى جهات إرهابية، أن مسؤولاً عن إمدادات «القاعدة» اشترى من اليابان عام 1995، ألف جهاز لاسلكي أرسلت إلى أفغانستان. وذكرت المصادر أن السلطات الأثيوبية عثرت على عدد من تلك الأجهزة في أحد المخابىء التي استخدمها منفذو محاولة اغتيال الرئيس مبارك خلال زيارته لأثيوبيا في حزيران (يونيو) من ذلك العام.

وأضافت أن طوكيو تحقق في عملية بيع الأجهزة مع محققين غربيين. وأفادت معلومات حصلت عليها سلطات الأمن اليابانية من محققين غربيين أن مسؤول «القاعدة» دخل الأراضي اليابانية في ذلك الوقت، واشترى من منطقة اكيهابارا لبيع الأجهزة الإلكترونية، أجهزة عالية التقنية لبث إشارات يصل مداها إلى 20 كيلومتراً. واعتقل الرجل في ألمانيا عام 1998 لضلوعه في تفجير السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا، ورحّل إلى الولايات المتحدة في كانون الثاني (يناير) من العام نفسه.

«إليزابيث باك»(*)
(Elisabeth Pack)
(-)

هي جاسوسة بريطانية شهيرة، استغلّت مفاتنها لإغراء رجال متنفّذين، وقورنت «بيتي باك» بـ «ماتا هاري». غير أن هذه المقارنة لن تتجاوز هذا الحد. فلئن كانت حياة إليزابيث، ابنة القبطان البحري، تشبه إحدى الروايات، فإن زوجها لم يكن بالتأكيد الشخصية الرئيسية فيها. ذلك أن «آرثر باك»، الملحق التجاري في السفارة البريطانية والذي يكبرها بعشرين سنة، لم يكن له من صفات الأبطال أي شيء. إذ لم تمضِ خمسة أشهر على زواجها منه، حتى أنجبت المرأة الشابة إلى العالم طفلاً سارع «آرثر باك»، إلى التخلّي عنه تفادياً لفضيحة يمكن أن تسيء إلى حياته ومستقبله. وبعد أن طوى النسيان هذا «الحادث»، أخذ الزوجان اللذان كانت الصحافة تتلقف أخبارهما يسافران بكثرة وبدأت «بيتي» النهمة تجمع العشاق حولها.

ومما لا شك فيه أن أجهزة الاستخبارات البريطانية قد قامت بشكل غير رسمي بتطويع «بيتي» من أجل أن يتسنى لها معرفة الوضع

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1988. ص242 ـ 248.

في إسبانيا خلال الحرب الأهلية، وذلك بسبب ما أبدته «بيتي» من تصرف بطولي أثناء إخلاء السفارة البريطانية في «سان سيبستيان». لكن عملها مع الاستخبارات البريطانية لم يدم طويلاً، إذ تمّ نقل زوجها «آرثر باك» على الفور إلى وارسو بعد أن أظهر تأييده لنظام فرانكو. وإذ ارتبطت هناك بعلاقة عاطفية مع ديبلوماسي بولوني شاب وكثير الثرثرة يدعى «إدوارد كوليكوفسكي»، علمت «بيتي» أن هتلر يستعد لاجتياح تشيكوسلوفاكيا وأن بولونيا سيُسمح لها بضم جزء منها لأراضيها ثمناً لسكوتها. ويبدو أن هذه المعلومة التي أرسلتها «بيتي» إلى «الديبلوماسي» الإنكليزي «جاك شيلي» هي التي أقنعت الاستخبارات البريطانية بتطويع هذه المرأة، ولاسيّما أن تغطية هذه الاستخبارات للأراضي البولونية كانت ضعيفة إلى حد يثير السخرية. وقد تلخصت التعليمات الموجهة إلى «بيتي» بإقامة علاقات صداقة مع رجال من ذوي المناصب العليا في الحكومة البولونية وتشجيعهم على الكلام. ولم تلبث «بيتي» الخبيرة في مجال الإغراء ـ وهذا أمر لم يعجب رئيس الوزراء البريطاني «نيفيل شامبرلين» الذي لم يكن يعير اهتماماً كبيراً للمعلومات التي تجنى بوساطة هذه الطرق الماجنة ـ أن أوقعت في شباكها رئيس ديوان وزير الخارجية «ميشال لوبينسكي». وإذا لم تكشف «بيتي»، في مذكراتها، عن فحوى المعلومات التي جمعتها من «لوبينسكي»، فإن بعضهم أكّد على قيامها بإرسال تقارير حول واحد من أهم أسرار الحرب العالمية الثانية، ألا وهو آلة كتابة الشيفرة الألمانية «إنيغما». كانت «بيتي» لا تفارق صديقها قيد أنملة، حتى أنها رافقته إلى برلين قبل أن يحضر اجتماعاً للحزب النازي في نورمبيرغ. وبعد وقت قليل من ذلك، علمت بذهول أن «لوبينسكي» اعترف لزوجته بعلاقته الغرامية معها، كما أنه أخبر وزير الخارجية

«بيك» بعزمه على الزواج من السيدة «باك» حالما يحصل على الطلاق من زوجته. فلم يكن أمام وزير الخارجية البولوني، الذي استبدت به الحيرة، إلاّ أن يشتكيها للسفير البريطاني السير «هوارد كينارد» الذي لم يجد مفراً من أن يطلب منها مغادرة الأراضي البولونية على الفور.

وبعد أن «انتهت» كعميلة في وارسو، وفقدت كلّ اتصال مع الاستخبارات البريطانية، رافقت «بيتي» آرثر إلى سنتياغو، وهناك حاولت إعادة الاتصال مع الاستخبارات البريطانية، لكنّها لم تستطع الحصول إلاّ على وظيفة ذات أهمية ضئيلة في مكتب الشيفرة بالسفارة. وإذ خاب أملها في العودة إلى سابق نشاطها، أخذت تعمل في الصحافة، ونشرت تحت أسماء مستعارة عدة مقالات دعائية ومضادة للألمان في صحيفتي «لاناسيون» و «ساوث باسيفيك ميل» المحلّيتين.

وفي حزيران (يونيو) من العام 1940، ورداً على رسائلها المتكررة، تسلمت «بيتي» أخيراً جواباً من وزارة الحرب البريطانية يدعوها «للإسهام في المجهود الحربي»، ثم أُرسلت تحت الاسم الحركي «سينثيا» إلى واشنطن حيث تم تجنيدها من قبل مكتب العمليات الاستراتيجية. وفي خلال إقامتها في الولايات المتحدة، التقت بالمدعو «شارل إيمانويل بروس»، الشخصية المهمة من مدينة «فيشي»، لكن لقاءهما لم يكن لأسباب إيديولوجية، كما يمكن أن نظن. إذ لما كان إرثه العائلي موجوداً بكامله في المنطقة التي كانت تقع تحت سيطرة حكومة فيشي، فقد رأى أن من الغباء جداً معارضة الحكومة القائمة بشكل علني. وعندئذٍ بدأت قصة حب جديدة أتاحت لـ «بيتي» اكتساب عشيقها إلى صفها. وقد أدى تعاونهما إلى معرفة الشيفرة التي كانت تستخدمها البحرية الإيطالية وسلطات «فيشي»،

وبالتالي تمكين الحلفاء من إحراز عدة انتصارات (وإن كانت ثانوية)، في منطقة المتوسط. وأخيراً اختارت «بيتي» أن تمضي بقية حياتها في جنوب فرنسا مع «شارل بروس»، في حين قام زوجها البائس آرثر، بعد إصابته باكتئاب، بإطلاق النار على نفسه في مدينة «بيونس آيرس» في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام 1945.

ومن الواجب أن نقول هنا إن موظفي الاستخبارات السرية البريطانية قد أظهروا شكوكاً كبيرة فيما يتعلّق بالعقبات العديدة التي واجهتها هذه المرأة الفاتنة في «حرب الظل»، بعد أن طالعوا رواية «سينثيا» التي كتبها «هارفورد هايد» في العام 1966، واستمدّ أحداثها مباشرة من «مذكرات» بيتي باك (بعد أن قلّل من أهمية علاقاتها الغرامية لكي لا يعطي للقارىء انطباعاً بأنه أمام امرأة جنسية). وقد جاء نشر هذا الكتاب بعد وقت قليل من «قضية بروفومو» وكان العنصر النسائي قد أخذ يزعج نوعاً ما الاستخبارات البريطانية...

إليزابيت بنتلي (*)
(Elisabeth Bently
(-   )

هي إحدى جاسوسات جهاز المخابرات السوفياتي في الولايات المتحدة الأميركية. كانت تعمل في وزارة الخارجية الأميركية.

وعندما وقفت بنتلي ـ التي اعترفت صراحةً بأنها خدمت السوفيات كجاسوسة لهم في وزارة الخارجية الأميركية ـ في المحكمة لتدلي كيف كانت ترسل المعلومات إلى الشيوعيين، قالت أنها سبق أن حذّرت السوفيات قرب نهاية الحرب بأن منظمة «ماجيك Magic» (بمعنى «سحر») الأميركية كانت على وشك أن تكشف محتويات بعض رسائلهم السرية. وبطبيعة الحال، أراد رؤساؤها الشيوعيون أن يعرفوا أي رموز أو أية شيفرة توصل الأميركيون إلى حلها، ولكنها لم تستطع معرفة ذلك.

(*) المرجع: صلاح نصر. «الحرب الخفية...» ص361.

إليزابيث شراغمولر(*)
(Elisabeth Chragmuller)
(1918 - 1888)

جاسوسة ألمانية اشتهرت بلقب «مدموازيل دو كتور». فمن هي هذه الجاسوسة التي شغلت أخبارها دوائر المخابرات البريطانية والفرنسية والبلجيكية وغيرها؟ في هذا الصدد يقول رجل المخابرات جان بردان ما يلي: من النسوة اللواتي اشتغلن في دوائر التجسس والاستعلامات الألمانية، قليلات خدمن في هذا الميدان الخطر بدافع الوطنية. ومنهن من دفعهن الحب والطموح إلى الانتظام في صفوف جنود الكولونيل نيقولاي رأس الدوائر السرية الأكبر. أما الباقيات، وهن السواد الأعظم، فقد كانت المادة وحدها هي الدافع لهن إلى ركوب هذا المركب الخشن.

لست من المعجبين بالجاسوسية الألمانية ولا بقادريها. فقد اشتغلت من العام 1913 إلى العام 1930 في محاربة أعوان الكولونيل نيقولاي وخلفائه. وبقيت من العام 1940 إلى نهاية الحرب العالمية الثانية في صراع دائم مع جماعة الغستابو العسكري ومكتب

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل دقاق. ص43 ـ 50. وأيضاً: صلاح نصر «الحرب الخفية...». ص50 ـ 52. وباروخ نادل «وتحطمت الطائرات عند الفجر»... ص87.

الاستعلامات الألماني، وما يزال ذكاء هؤلاء القوم ومهارتهم وإخلاصهم وبرّهم بوطنهم مشاكل تحيرني ومعضلات يعجزني حلها.

لقد حكموا علي بالإعدام مرتين فلم أتراجع عن ملاحقتهم ولا انقطعت عن العمل ضدهم من مرسيليا إلى طولون، ومن نيس إلى الارديش، ومن ليون إلى باريس فدنكرك فبروكسل فالمناطق المحتلة والمغلقة دون الغرباء. طاردتهم وطاردوني زمناً طويلاً، ونجوت من قبضتهم، واستطعت أن أمكر بهم بفضل معرفتي التامة العميقة بروح الألماني وتفكيره وأساليبه.

عرفت كثيرين من كبار جواسيس الألمان وأدمغتهم المفكرة. ولكنني أعترف بأنه إذا كان في دوائر التجسس والاستعلامات الألمانية رجل كبير، فهو فون بابن بدون منازع. وإذا كان فيها امرأة كبيرة فهي **مدموازيل دو كتور** ـ هكذا يقول جان بردان ـ.

❀ ❀ ❀

كانت حقبة من الزمن لم تخلُ فيها رسائل الدوائر السياسية ومخابرات مراكز القيادات العسكرية يوماً من إشارة إلى مدموازيل دو كتور أو ذكر لأعمالها، ورددت فيها أسلاك الهاتف اسم هذه المرأة التي مثلت دوراً عظيماً في العالم. فكنت تسمع:

ـ ألو... ألو... هنا وزارة الحرب البريطانية... بلِّغوا دوائركم في هولندا أن مس دو كتور اكتشفت على ما يبدو بعض أسرارنا واستطاعت معرفة أخبار صحيحة عن منظماتنا السرية في بلجيكا...

ـ ألو... ألو... الهافر؟ أرسلوا إلينا ضابطاً مختصاً بالاستنطاق ليحقق مع أسير نظن أنه أحد أعوان مدموازيل دو كتور.

ـ ألو... ألو... هنا مايشتريخ. بلغنا الساعة أن فراولين دو كتور وشت بستة من جواسيسنا وأوقعت بهم في الأسر.

ـ ألو... الجيش السادس؟ هنا المكتب الثاني (مكتب الاستعلامات الفرنسي) التابع للقيادة العليا. بلغنا أن امرأة ألمانية هي مدموازيل دو كتور المعروفة، وصلت إلى فرنسا وأنها تسعى إلى العمل ممرضة في أحد المستشفيات المتنقلة التابعة لجيوشنا في ساحة القتال.

ـ ألو... كابتين لادو؟ هنا المكتب الخاص في «آنماس». بلغنا أن مدموازيل دو كتور موجودة في برن.

ـ ألو... القيادة العامة؟ هنا الكولونيل قائد كردوس المشاة الثالث بعد المائة. أخبرتني مراكز المراقبة أن جنودنا أطلقوا النار على ممرضة وهي تركض متجهة نحو خطوط الألمان. أرسلتُ دوريات للتفتيش عنها وفتحت تحقيقاً في القضية. وقد رأيت أن أخبركم بما كان لتأمروا بما يبدو لكم.

ظلت دوائر الاستعلامات وسكوتلانديارد والأمن العام الفرنسي والشرطة القضائية البلجيكية والملحقون العسكريون بالسفارات في برن ولاهاي، طوال ثلاث سنين، مشغولين بمدموازيل دو كتور يقيمون الدنيا ويقعدونها للقبض عليها وفضح أعمالها... ومدموازيل دو كتور لا وجود لها في الحقيقة ولا كانت بالشخص الملموس المنظور! وقد أثبتت وثائق وجدت (حديثاً) في ألمانيا، أن هناك ثلاث نسوة عزيت إليهن أعمال مدموازيل دو كتور، وأن دوائر الشرطة ومكافحة الجاسوسية المتحالفة أخطأت إذ لم تميز بين الجاسوسة التي كانت تعمل في سويسرا وتلك التي كانت تعمل في بلجيكا والمرأة الغريبة

التي اصطدمت بها الدوائر الفرنسية السرية. وأفاد الألمان من ذلك فائدة عظيمة.

وقد أطلق اسم «مدموازيل دو كتور» على هذا المثلث بسبب تقرير قدمه رجال الدائرة البريطانية السرية في بلجيكا أعلنوا فيه منذ العام 1915 أن جاسوسة خطرة في الخامسة والعشرين أو الثامنة والعشرين من العمر مجهولة الهوية، تشتغل لحساب الليوتنان ـ كولونيل نيكولاي، وأنها مشهورة بين رجال حاشية الجنرال فون بيزلر باسم فراولين (الآنسة) دو كتور، شقراء، نحيلة القوام، على جانب مرموق من الجمال، قوية السلطان.

ومنذ ذلك اليوم سميت كل جاسوسة ألمانية شاع خبرها وتخفّت بثياب الممرضات، بمدموازيل دو كتور. ونقل الكتّاب عن دوائر الشرطة ومكافحة الجاسوسية العسكرية هذا الخطأ لمّا رووا بعيد الهدنة حوادث الجواسيس في الحرب العالمية الأولى. وعزا بعضهم جميع أعمال النسوة الثلاث إلى الآنسة شراغمولر، وبعضهم إلى الآنسة ليسر. ولم يشأ الألمان أن يزيلوا هذا اللبس، بل أمعن الكولونيل نيكولاي في التضليل وبالغ في طمس الحقائق ليفيد من ذلك في حربه الخفية التي لم تعرف هدنة ولا معاهدة صلح وتخطت كل اعتبار.



لعلّ «الجاسوسة الخطرة» التي أعلن رجال الدائرة السرية البريطانية في بلجيكا خبرها منذ العام 1915 كانت أكثر هاتيك النساء الثلاث خطراً وأجدرهن باسم مدموازيل دو كتور. ولكن الألمان لقبوها بالنمرة الشقراء، وما بالغوا في هذه التسمية.

كانت «النمرة الشقراء» هذه تدعى **إليزابيث شراغمولر**، والدها

من صغار رجال الصناعة في ويسفاليا. دخلت جامعة فريبورغ ـ آن ـ بريسغو في العام 1910 بعد أن أكملت دروسها الثانوية في دورتموند بنجاح باهر. وكانت تقيم في غرفة بدار للأجرة يجاورها ضابط برتبة ملازم ندبته القيادة إلى مدرسة التجسس الألمانية في فريبورغ ليعلم اللغة الإنكليزية فيها.

ثم أنهت إليزابيث دروسها ونالت شهادة الدكتوراه في الفلسفة فما بقيت ثمة ضرورة لأن تظل في تلك البلدة. ولكن جارها الشاب أسر قلبها فارتمت في أحضانه وعاشا بعض الزمان في ذلك النزل الهادىء. كانت هي في السادسة والعشرين. أمّا هو ففي الثلاثين، ويدعى كارل بريام.

ثم كانت الحرب ففرقت بين الحبيبين، فعادت إليزابيث إلى ويسفاليا وسافر بريام إلى كولونيا مع فيلقه.

لم ترض الفتاة، وهي دكتورة في الفلسفة، أن تكتفي من النضال بالقعود في البيت وتطريز بعض الملابس للجنود ولا بمعالجة الجرحى في المستشفيات، بل اعتزمت أن تساهم في الحرب بنصيب كبير فعّال.

وجدّت في السعي، وساعدها كارل بريام، إلى أن عينت في أيلول (سبتمبر) 1914 في مكتب مراقبة البريد في بروكسل التي كان الألمان يحتلونها. وأظهرت ذكاءً ملحوظاً، وقدمت تقريراً هاماً إلى الجنرال فون بيزلر ـ الذي كان يهاجم حصن انفرس ـ ساعده في الاستيلاء على الحصن. وقد استطاعت أن تستخلص الأخبار التي ضمنتها تقريرها من الرسائل الموجهة إلى الجنود البلجيكيين والتي وقعت في أيدي الألمان.

ولفت نشاط إليزابيث أنظار رؤسائها إليها، فنقلت من دائرة

مراقبة البريد إلى قسم التجسس، وكلفت مهمة إيجاد أعوان للتجسس على الإنكليز والفرنسيين في بلادهم لحساب دائرة الكولونيل نيكولاي.

وبرّح الشوق بإليزابيث إلى حبيبها الضابط، فسعت في نقله إلى انفرس لدى نيكولاي، فحقق أمنيتها. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1914 تلقى كارل بريام أمراً بنقله إلى انفرس، وكان قد رفع إلى رتبة كابتين. وفي ليل الثامن عشر من الشهر المذكور، بينما كان ورفاقه يحتفلون بالوداع، أصيبت البناية التي كانوا فيها على جبهة الصوم في فرنسا بقنابل مدفع بعيد المدى، فتطايرت بمن فيها في الفضاء.

كان مصرع الشاب طعنة نجلاء في صميم إليزابيث شراغمولر وحافزاً لها على مضاعفة نشاطها في ميدان التجسس على من قتلوا حبيبها. فانطلقت تعمل بوحشية جنونية. ولم تحص ضحاياها. وساعدتها ثقافتها الرفيعة واتقانها لغات عديدة وقسوتها في بلوغ أرفع المراتب. وفي أيلول (سبتمبر) 1915 كانت تدير منظمة الجواسيس الألمانية في انفرس، ولم تغادر هذه المدينة إلاّ يوم استسلم الألمان. وقد ظلت مخلصة لرئيسها نيكولاي، ومضت في عملها حتى بعد الهدنة إلى أن قتلت في حادث سيارة.

ومن أشهر ما يروى عنها أن أعوانها في فرنسا عرفوا، بالرغم من تكتم الدوائر المتحالفة الشديد، أن الفرنسيين اخترعوا سلاحاً جديداً هو الدبابة، وتوصلوا إلى الحصول على تقارير عديدة عن دقائق هذا الاختراع، فنقلوها إليها وحملتها هي إلى مستشار نيكولاي الفني فأبى أن يصدقها. وما انقضت بضعة أسابيع حتى هاجمت الجيوش المتحالفة منطقة كامبري بالدبابات الفرنسية واخترقت الجبهة الألمانية.

وكان انتقام الجاسوسة من مستشار الكولونيل نيكولاي فظيعاً. ولكنها لم تفضح تهاونه، بل اكتفت بأن أعطته مسدساً وأمرته بأن ينتحر في حضرتها، ففعل، وقد كبرت جنايته في عينه.

هذه هي مدموازيل دو كتور. وإنما لقبها الألمان بهذا اللقب احتراماً، ولأنها كانت دوكتورة في الفلسفة.

كانت إليزابيث شقراء جميلة. ولكنها لم ترتد قط ثوب ممرضة. وقد اشتغلت بالتجسس بدافع رغبتها اللجوج في خدمة الوطن والمساهمة في الحرب مساهمة فعلية. فلمّا قتل حبيبها انقلبت نمرة بعد أن طعنت في أمانيها وسعادتها وفقدت كل أمل ولذة في العيش.

أليس شايتون(*)
(Alice Chayton)
(-   )

هي إحدى جاسوسات المخابرات البريطانية ضد المخابرات الألمانية النازية. فكيف قامت أليس بهذا الدور؟ وماذا كانت النتيجة؟

لم يكن إلمام أليس شايتون باللغة الإسبانية وبأساليب الحياة الإسبانية هو كل ما رشحها لدى رجال المخابرات البريطانية، وإنما حفزهم للاستعانة بها، درايتها ببعض أساليب الجاسوسية النازية في كتابة وتبادل الرسائل السرية التي يضمنونها تقاريرهم الخطيرة.. إذ كانت لها صديقة برلينية تدعى فيرا روزر، التحقت بعد الدراسة الثانوية بمدرسة الجاسوسية النازية، في معهد كلابستوك بهمبورغ، وهي المدرسة التي خرجت دهاة الجواسيس الألمان..

وكانت فيرا حريصة على أسرار دراستها ـ رغم صداقتها لأليس ـ لكنها لم تجد حرجاً في أن تطلع أليس ـ خلال مقابلتهما ـ على بعض أساليب كتابة الرسائل السرية، كلون من ألوان التسلية.. فأثار ذلك فضول الفتاة، وحفزها على السعي للاستزادة من هذه الأساليب..

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. دار الكاتب العربي. بيروت. الطبعة الأولى 1992. ص78 ـ 82.

وفي ذات مرة، نسيت فيرا لديها كراسة صغيرة، تضمنت شرحاً لأنواع المداد السري التي يستعملها جواسيس النازي، والتحليل الكيماوي لكل منها، واستطاعت أليس أن تنقل محتويات هذه الكراسة قبل أن تفطن صاحبتها لغيابها، أو تشعر بتصرفها.. وما لبثت أليس أن نسيتها حتى التحقت بخدمة المخابرات فتذكرتها وقدمتها كأول هدية قيمة نافعة منها. وفعلاً، أعانت الكراسة رجال المخابرات البريطانية على كشف أسرار الكثير من رسائل الجواسيس النازيين، في بداية الحرب.

وألحقت أليس بمدرسة المخابرات البريطانية، حتى إذا أتمت دراستها، عينت كمدرسة بها ولم يفكر رؤساؤها في إيفادها لمهمة خارج بريطانيا، إلا يوم صادفتهم المشكلة التي تدور حولها هذه القصة.. فكانت مغامرتها الأولى.. والأخيرة.

ففي عنفوان انتصارات الألمان وتأهبهم لغزو بريطانيا، دعاها أحد رؤساء هذه الأخيرة، وقال لها:

ـ ستحملك إلى مدريد طائرة مدنية خالية من العلامات، فتهبط بك في مطار سري خاص حيث يقابلك عميلنا «1 ـ 24» فيسلمك التعليمات..

وسافرت أليس في الليلة نفسها وهي تجهل مهمتها كما تقضي أصول مهنتها.. وما إن التقت بالعميل «1 ـ 24»، حتى ارتدت الطائرة إلى قاعدتها.. وكان العميل متنكراً في زي سائق سيارة عامة استقلتها أليس.. وقال لها وهما في الطريق:

ـ سأذهب بك إلى الفندق، حيث حجزت لك الغرفة رقم 98، فامكثي بها حتى تصل إليك التعليمات..

ووصلت أليس إلى الفندق، ولزمت غرفتها، وإن هي إلا عشر

دقائق، حتى فتح الباب الذي يفصلها عن الغرفة المجاورة ودخل عليها رجل أشيب مهيب الطلعة، قدم إليها نفسه، فعرفت أنه من زملائها.. وأفهمها مهمتها.. ثم سلمها ثلاث صور فوتوغرافية، وانصرف..

وفي صباح اليوم التالي ارتدت أليس ثياباً سوداء بالية، وأبدلت من هيئتها، حتى بدت في صورة حزينة بائسة تستثير الشفقة والرثاء.. وسارت تتظاهر بالتسكع في الطرقات، حتى بلغت حديقة نائية تكاد تكون مهجورة لقلة روادها، فجلست على أحد مقاعدها الحجرية، وراحت تجول بعينيها فيما حولها في قلق، وكأنها تترقب مقدم إنسان..

وما لبثت أن لمحت شخصاً يقبل في اتجاهها، فلمعت عيناها تحفزاً، وأخرجت من طيات ثوبها الصور الفوتوغرافية الثلاث، فتفحصتها في عناية وسرعة، ثم ردتها إلى مخبئها، واندفعت تبكي وتنشج في البكاء..

وبلغ القادم مقعدها..

كان شاباً شاحب الوجه، غائر العينين، مشعث الشعر، مهدل الثياب.. يتجلى على ملامحه أنه يعاني آلام نكبة قاسية.

واستوقفه بكاء الفتاة، فتقدم إليها في حياء وتردد، وراح يحاول أن يسري عنها باللغة الإسبانية، التي درستها في مدرسة المخابرات البريطانية..

وهدأت الفتاة أخيراً، واطمأنت إلى مواسيها فشرعت تحدثه عن نفسها زاعمة أنها قروية إسبانية تدعى روزالي منديكا.. ماتت أمها، ولحق بها أبوها، فتركاها بلا عائل أو مال، مما دفعها أن تنزح إلى مدريد سعياً وراء القوت.. ولكن سبل العمل أوصدت في وجهها،

وتكاثر حولها ذئاب المدينة.. فلاذت بهذه الحديقة، تتدبر طريقاً للخلاص..

وعرفها الفتى بنفسه. كان يدعى أنطونيو ماريبالدي.. وكان يدرس التصوير في جامعة مدريد..

وانتهى اللقاء بتفاهم بين القروية الحسناء والمصور الشاب.. فلما دعاها لأن تشاطره مسكنه، لم تتردد طويلاً..

على أن الشاب كان في الحقيقة جاسوساً ألمانياً، يتلقى الرسائل من عميل نازي بلندن، فيرسلها بدوره إلى برلين، ويتلقى تعليمات برلين ليبعث بها إلى لندن..

وكان رجال المخابرات البريطانية يعرفون ذلك ولكنهم عجزوا عن أن يجدوا في الرسائل المتبادلة ما يدعم شكوكهم.. كانت كلها شخصية تشرح الشوق والمحبة وتهدي السلام والتحيات. وليس من بين ألفاظها ما يريب، ولا في طريقة كتابتها ما يوحي بحيلة من حيل الجاسوسية.. ومن ثم كان اختيار أليس شايتون لهذه المهمة الخطيرة..

وعاشت أليس أياماً في بيت أنطونيو ماريبالدي.. كان يتركها طوال النهار بحجة الدراسة في الجامعة.. فلا يعود إلا في المساء ليصحبها في نزهة تستغرق معظم الليل.. فقد غدا حبهما شديداً وتظاهرت بأنها تبادله عاطفته الحارة المتأججة..

وطالت إقامة أليس في منزل الجاسوس الألماني حتى كادت العلاقة المستمرة بينهما تنقلب إلى حب حقيقي..

ولم تعثر أليس في المنزل على ما يثير الشبهة، اللهم إلا مجهراً

زعم الشاب أنه ابتاعه ليرضي هوايته لفحص الجراثيم، لولا أنه لم يكن يجد الفراغ الكافي.

على أن الفتاة لم تقنع بهذا التعليل، وإن لم تخرج من أبحاثها وتحرياتها بنتيجة تدعم ظنونها..

وخدمتها المصادفة ذات يوم.. كانت تعبث بالمجهر.. وكانت إلى جواره إحدى الرسائل الشخصية التي كان الشاب يتلقاها من يوم إلى آخر، والتي كلفت بكشف سرها. وخطر لها أن تتبين تأثير عدسات المنظار على حجم حروف الرسالة. ولكنها لم تكد تتطلع خلال العدسات، حتى شهقت مأخوذة، ثم صاحت في فرح وانفعال: لقد كشف السر الخطير.. سر الرسائل الودية..

كان السر يتركز في ثلاث نقط سوداء، مما يوضع عادة في نهايات العبارات. وألفت أليس أن هذه النقط الثلاث، تتضمن رسالة لا يمكن قراءتها إلا تحت المجهر.. وقد جاء فيها، باللغة الألمانية طبعاً:

«نمي إلينا أن خبراء الجيش البريطاني يصنعون الآن في لندن باروداً لطلقات المدافع يمتاز بقلة دخانه، وضعف نار اشتعاله. نريد تفاصيل تركيب البارود ومكان صنعه وميدان تجربته».

وأدركت أليس سر النقط. كانت الرسالة تكتب أولاً على ورقة مستديرة ثم تصور بآلة متناهية الدقة، حتى يتضاءل حجمها إلى حجم طابع البريد.. ومرة أخرى، يعاد تصويرها خلال ميكروسكوب مقلوب فتصبح نقطة لا تكاد ترى، ثم تلصق في سياق الرسائل البريئة متناثرة بين جملها.. فلا يمكن قراءة ما تحتويه إلا تحت الميكروسكوب.

وأسرعت أليس بالسر الخطير إلى زميلها في الفندق، فسألته أن

يبادر بإبلاغه إلى لندن. وكان لزاماً عليها بعد ذلك أن تعود إلى سكن أنطونيو حتى لا يثير اختفاؤها شكوكه وعادت.. ولكنها لم تكد تلج المسكن حتى ألفت ثلاثة رجال عمالقة في انتظارها.. ونهضوا لاستقبالها..

- مرحباً بأليس شايتون.. لقد قبضنا على صاحبك «1 - 24»، فاعترف بأعماله، وأرشدنا إليك..

واقتادوها إلى مصيرها.. فقد حملتها طائرة إلى برلين حيث أعدمت، دون أن يفطن رجال الغستابو إلى أنها كشفت قبل موتها سر النقط السوداء وأرشدت لندن إليه..

آمي ثورب (أو آمي إليزابيث)(*)
(Amy Thorpe)
(1964 -)

تعتبر **آمي ثورب** بحق جاسوسة الإغراء الأعظم في العصر الحديث. فلقد استفادت لأقصى مدى من جمالها الخارق، وكذلك من قدرتها الإغرائية الجذابة على إيقاع العديد من الشخصيات الدبلوماسية في حبائل مكائدها.

آمي ثورب أميركية المولد، تزوجت في مطلع حياتها في الثلاثينات من أحد الدبلوماسيين الإنكليز وكان يدعى أرثر باك. عرف زوجها بالجفاء والخشونة، وعدم اللياقة الشخصية، فضلاً عن أنه كان يكبرها بعشرات السنين. وباختصار لم يكن وضعه يليق بأنوثة آمي الخارقة الجمال. وقبول آمي بهذا الزواج فرض عليها التجوال والسياحة في أميركا الجنوبية وأوروبا بطبيعة مهام عمل زوجها.

استطاعت المخابرات البريطانية الوصول لآمي لتجنيدها، فوافقت فوراً على العمل معهم.

(*) **المرجع**: دايفيد كان «حرب الاستخبارات». ترجمة لطيف أفيوني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ص99 ـ 101. وسعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». ص69 ـ 71.

مهام عملها الجديد تطلّبت منها أن تنخرط ضمن الحلقات الاجتماعية للمجتمع الأميركي الراقي. وهناك من خلال إقامتها للعديد من حفلات الكوكتيل تعرفت على أحد الدبلوماسيين الألمان الذي سرعان ما احتضنته عشيقاً واستطاعت أن تحصل على آلة الشيفرة الألمانية السرية وتسليمها للإنكليز.

وكانت مهمة آمي الثانية كشف أسرار السفارة الإيطالية والسفارة الفرنسية أيضاً في العاصمة الأميركية واشنطن.

لم تجد صعوبة في إغراء الملحق العسكري الإيطالي في أميركا الذي لم يتردد إرضاء لها في إعطائها مفاتيح الشيفرة الإيطالية المستعملة في الحرب.

ساعد كشف هذه المفاتيح على ضرب الأسطول الإيطالي في المتوسط ومهدت لحملة الحلفاء على شمال إفريقيا.

أما المهمة الثالثة فهي الولوج إلى داخل السفارة الفرنسية لكشف أسرارها.

استطاعت آمي الوصول إلى قلب المسؤول الإعلامي في السفارة شارل برس وارتبطت معه بعلاقة عاطفية مكّنتها من الحصول على معلومات حول وجود كميات من الذهب الفرنسي المخبأ في إحدى جزر الكاريبي مهدت للإنكليز بالاستيلاء عليه، وكذلك تم كشف شبكات الجاسوسية الألمانية في أميركا الشمالية والجنوبية. أما المهمة الأصعب فكانت تكليفها بالمساعدة على الحصول على الشيفرة البحرية الفرنسية من سفارتهم في واشنطن وذلك لعجز العشيق برس على الحصول عليها.

في إحدى ليالي واشنطن الباردة توجهت آمي ومعها عميل آخر

ادعت أنه عشيقها إلى حارس السفارة الفرنسية وطلبت منه السماح لهما بقضاء ليلة حمراء في إحدى الغرف الجانبية للسفارة لأن عشيقها متزوج ويخشى الفضيحة، ومع بقشيش مغرٍ وزجاجة شمبانيا للحارس سمح لهما بقضاء تلك الليلة.

تسلل الحارس للغرفة لمراقبتهما فإذا به يعود سريعاً بعد أن رأى العاشقين في إحدى جلساتهما الحميمة جداً.

ومع إلهاء الحارس بهذه المراقبة كانت فرقة إنكليزية متخصصة قد دخلت مبنى السفارة من الباب الجانبي الذي سهل دخولهم إليه برس، وقد تم فتح الأقفال للخزنة السرية ونسخت الشيفرة بالكامل وعادت والحارس الليلي غارق في نومه من جراء تناول الشمبانيا المخدرة.

هذه العملية غيرت مسار الحرب وعجلت في تحرير فرنسا وإلى دحر النازية عن أوروبا.

بعد ذلك قتل زوجها بالرصاص في مدينة بيونس أيرس مما سهل على صديقها الجاسوس الزواج منها بعد أن طلق زوجته.

عاشت جاسوسة الإغراء حتى عام 1964 دون أن تكشف أو تعتقل.

إميلي(*)
(Emili)
(-   )

هي إحدى جاسوسات الحلفاء التي حصلت على خطة قائد الفيلق الألماني 26 في الميدان الغربي بفرنسا ونقلتها إلى الحلفاء.

كيف حصل ذلك؟

لعل قصة «إميلي» أروع هذه القصص جميعاً.. فقد كانت من أهم العناصر التي ساعدت على إنقاذ فرنسا، فحررت أوروبا كلها من ربقة الاحتلال النازي.

وإميلي فتاة زكية القلب، رائعة الجمال.. جمعت في وجهها وكيانها الفارع كل الفتنة الإنكليزية والألمانية معاً.. وكان أبوها الإنكليزي قد طلق أمها الألمانية، فأصبحت حياتها موزعة بين لندن وبرلين..

وبينما كانت إميلي تزور أمها في ألمانيا سنة 1938 أفضت إليها بما يتعب قلبها، إذ تتقدم بها الأعوام ولم يتقدم إليها بعد رجل يطلبها للزواج. فقالت الأم وهي تقبل ابنتها الساحرة: «إنك لا تصلحين

(*) **المرجع**: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات» ص44 ـ 46.

زوجة.. وقد تصلحين جاسوسة.. أخيراً».

وضحكتا.. غير أن هذه الدعابة سيطرت على قلب الفتاة.. وطارت إلى أبيها في لندن. وإذ شاهد فتنتها الطاغية الجبارة صاح في وجهها: «لكم أخشى على الناس من فتنتك». وضحكت الفتاة وهي تقول: «لن أكون شريرة ولا خطيرة يا أبي».

واندلعت الحرب سنة 1939 وسقطت أوروبا كلها، وبقيت فرنسا تتلوّى تحت أقدام المحتل.

وعبثاً حاول الحلفاء أن يجدوا طريقاً لغزو أوروبا فقد أحاطها هتلر بستار حديدي.

كان لا بد للحلفاء قبل أن يشرعوا في غزو أوروبا عن طريق الساحل الفرنسي، أن يعرفوا عدد قوات الاحتلال، ومراكز احتشادها.. واجتمع رجال المخابرات طويلاً قبل أن يجدوا حلاً.. والمصادفة وحدها هي التي ساقت إميلي إليهم.. كانت قد سئمت من الحياة في إنكلترا، ومن أنين الجرحى والضحايا.. لقد قالت لها أمها ذات يوم أنها تصلح جاسوسة خطيرة.. ويجب أن تكون.

وبهر رئيس مكتب المخابرات من جمالها وحيويتها وذكائها.. وتفاهما سريعاً، واتفقا على كل شيء.. قال لها:

ـ ستقذف بك إحدى الطائرات إلى ألمانيا بالباراشوت أثناء إحدى غاراتنا.. وعليك أن تعتمدي بعد هذا على نفسك.. وكألمانية تتجولين في ألمانيا والبلاد المحتلة كما تشائين..

وبعد ثلاثة أسابيع من التدريب على الهبوط بالباراشوت هبطت إلى برلين مزودة بالنصائح والتعليمات.. وفي برلين تقدمت إلى وزارة العمل الألمانية تطلب عملاً تخدم به وطنها ألمانيا.. وعينت على الفور. وهنا لعبت المصادفة أيضاً دورها.. فقد ألحقت بالفيلق 26

في الميدان الغربي بفرنسا كسكرتيرة خاصة للقائد.. وهناك أثار نشاطها إعجاب الجميع.. وأعجب القائد بأنوثتها أيضاً فدعاها إلى قضاء سهرة في منزله خلف الخطوط..

وفي حجرة هادئة جلس الجنرال وسكرتيرته الألمانية يشربان الخمر، ويتحدثان عن الحياة والحب. وبعد لحظات كان الجنرال ينام في فراشه بفعل المخدر القوي الذي دسته له في الشراب سكرتيرته العزيزة الحسناء...

وتسللت إميلي إلى خريطة القائد فنقلت منها كل خطط القيادة الألمانية في الدفاع عن سواحل فرنسا.. ونقشت الخطط على قميصها الداخلي.. ولم تهرب.

واستلقت إلى جوار القائد حتى الصباح.. فلما استيقظ أخذ يلعن إفراطه في الشراب حتى لقد أفلتت منه ليلة مع أجمل النساء.

وأرسلت إميلي قميصها إلى محل معين لأشغال التطريز في سويسرا ليصنع على غراره قميصاً آخر، وتابعت حياتها ونشاطها المعتاد إلى جوار الجنرال الألماني.

وتولى صاحب المحل ـ وكان من رجال المخابرات ـ ترجمة النقوش التي كانت إميلي قد طرزتها وروداً بألوان مختلفة، وكانت أوراق الورد وألوانه واتجاهاته تفصح عن عدد القوات وأماكن التحصينات.

وهكذا استطاع الحلفاء أن يعرفوا قوة العدو.. وضربوا ضربتهم بنجاح.

أمينة المفتي (*)
(Amina El-Mufti)
(- 1936)

هي من أشهر جواسيس الموساد العرب في المنطقة العربية، وتحمل شهادة الدكتوراه في علم النفس. أردنية الجنسية، عربية المولد، لكنها صهيونية الهدف والمبتغى.

فكيف جنّدها جهاز الموساد الإسرائيلي؟ وما المهمة التي كلّفت بها؟

من هذا المنطلق، نستطيع القول، أنه جميل جداً أن يموت الإنسان في سبيل وطنه، ولكن الأجمل أن يعيش لأجله... وليس من جريمة كبرى في العالم أكبر من أن يخون الإنسان وطنه وشعبه وأمّته.

وعندما تصبح الشعوب والأوطان سلعةً تُباع وتُشرى بالمزاد العلني، تضرب قضية «المساواة والعدالة» أقدامها في الأرض، مثبتةً أنّ لا فرق بين الرجل والمرأة في عملية المتاجرة والخيانة...

(*) **المرجع**: د. صالح زهر الدين «موسوعة أسرار من التاريخ». الجزء الأول. مؤسسة دار الرحاب الحديثة. بيروت 1994. ص163 ـ 170.
وفريد الفالوجي «أمينة المفتي أشهر جاسوسة عربية للموساد». مكتبة مدبولي. القاهرة. الطبعة الأولى 2002.

وعندئذ، لا مكان ولا وجود، لأقدس المقدّسات في قاموس البشرية، والمتمثّلة بـ : الشرف والكرامة.

وكثيراً ما أثبتت النساء جدارتها في عالم المخابرات والتجسس، وبرعت في هذا المضمار، وفاقت فيه رجالاً كثيرين. ومنهنّ مَنْ سَقَطْنَ في بداية الامتحان، وفي مرحلة «الروداج»، كما هو الحال مع الدكتورة في علم النفس «أمينة داود المفتي». الأردنية الجنسية، والعربية المولد، لكنها «إسرائيلية الهدف والمبتغى» (كما سبق).

فمن هي أمينة المفتي؟ وكيف جنّدتها المخابرات الصهيونية؟ وما هي المهمة التي أوكلت إليها في بيروت؟ وماذا كانت نهايتها؟.

ولدت الآنسة أمينة داود المفتي في العاصمة الأردنية، عمّان، سنة 1936. حصلت على الثانوية العامة بدرجة جيدة، وكانت تميل أثناء دراستها إلى «علم النفس»، فسافرت إلى النمسا، ودرست في جامعتها هذا الاختصاص، وتخرّجت وهي تحمل شهادة الدكتوراه. وحين عادت إلى عمّان بعد حرب حزيران (يونيو) سنة 1967، عملت على استئجار بناء جعلته مستشفى للمعاقين جسدياً وعقلياً؛ ثم ما لبثت أن اختلفت مع وزير الصحة في حينه الذي اتهمها بالاختلاس، وفسخ عقدها مع الوزارة بعدما تبيّن له أن شهادة الطب النفسي التي تحملها مشكوك بها... وبعد تصفية مستشفاها حقدت على وزير الصحة وعلى جميع العرب (حسب ادعائها فيما بعد)، وعادت إلى النمسا للعمل هناك، فتعرّفت على طيّار نمساوي يهودي سرعان ما تزوجت منه برضاء أهله ومعارضة أهلها. وبقيت معه في النمسا كزوجة حتى اندلعت حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام 1973. وانطلاقاً من حقدها على العرب شجعت زوجها على الالتحاق بطيران العدو الصهيوني.

كانت إسرائيل قد فتحت باب التطوّع والتعاقد للكثير من الطيارين خاصة اليهود منهم. فحضرت أمينة مع زوجها اليهودي إلى إسرائيل، وقد أصبح اسمها بعد زواجها من الطيار «آني داوود». وقد ألحق زوجها فوراً بالطيران الإسرائيلي برتبة نقيب طيار، حيث أدخل إلى الخدمة الفعلية باستلامه طائرة قتال «سكاي هوك»، توجه بها في أول غارة على الجبهة السورية، فأسقطته وسائل الدفاع الجوي السورية التي كانت له ولأمثاله بالمرصاد، واعتبر مفقوداً. أما زوجته الخائنة «آني» فقد اعتبرته أسيراً لدى الجيش العربي السوري؛ فاستأذنت السلطات الإسرائيلية بالسفر إلى بيروت للبحث عن زوجها وتسقّط أخباره هناك، فسمح لها. وخرجت بجوازها النمساوي إلى قبرص، وهناك أخرجت جوازها الأردني وكان صالحاً للاستعمال بسبب تجديدها له في السفارة الأردنية في فيينا لوقت الحاجة.

وصلت أمينة المفتي إلى بيروت، ونزلت في أحد فنادق شارع الحمراء، حيث تعرّفت على سيّدة لبنانية تدير محلاً لبيع الألبسة النسائية في الشارع نفسه، واشترت منها بمبلغ كبير لتغريها على التحدث عما سمعته عن أخبار الطيارين الإسرائيليين الأسرى في سوريا. ولم تنسَ أن تسألها عن وجود بعض الصحف السورية لديها من تاريخ فقدان زوجها. ولكنها لم تحصل على نتيجة فقررت العودة إلى النمسا بعد أن قطعت الأمل بوجود زوجها الطيار الإسرائيلي على قيد الحياة، وذلك للمطالبة بميراثه هناك والذي يقدّر بنصف مليون دولار تعود إليها وحدها حسب القوانين النمساوية.

وصلت إلى فيينا فاستقبلها ذوو زوجها بالترحاب، وقدموا لها العزاء بزوجها، وأحاطوها بالرعاية والعطف، ثم عرّفوها على ثلاثة أشخاص (ضباط في المخابرات الإسرائيلية) أظهروا لها اهتماماً خاصاً

بقضية الإرث وأبدوا استعدادهم من أول اجتماع معها أن يقنعوا أهل زوجها بعدم إقامة العراقيل في وجهها على هذا الصعيد (لقاء) تعاملها معهم لصالح المخابرات الإسرائيلية، فوافقت على ذلك انسياقاً مع حافزها الأساسي في عدائها للعرب، وحافزها الثاني وهو حصولها على الميراث.

وهكذا بدأت اللعبة. . . وأقام لها الضباط الثلاثة دورة تدريبية مكثّفة في نفس منزل عائلة زوجها، وهي عائلة يهودية نمساوية، جرى تدريبها في مدة شهر على ما يلي:

1 ـ أساليب التجسس الأولية.

2 ـ المراقبة، وتشمل مراقبة الأشخاص مع تحديد أماكن إقامتهم ورسم أماكنهم لمعرفة ورصد عناوينهم.

3 ـ التصوير ويشمل التصوير عن بعد والتصوير في الليل.

4 ـ الشيفرة والكتابة بالحبر السرّي.

وباعتبارها دكتورة في علم النفس فقد نجحت في هذه الدورة نجاحاً جعل مدرّبيها يوعزون لها بالسفر حالاً إلى بيروت لتنفيذ مهمات حدّدوها لها، وقد دفعوا لها مبلغ / 5000/ خمسة آلاف دولار تحت الحساب، وطلبوا منها إرسال عنوانها عندما تصل إلى بيروت لكي يحوّلوا لها ما تحتاجه من أجل نجاحها في تنفيذ مهمتها.

وصلت إلى بيروت وقررت الإقامة في منطقة «عين الرمانة» السكنية. فاستأجرت شقة مفروشة فيها بمبلغ ألفي ليرة لبنانية شهرياً / 2000ل.ل./ وقامت بصرف الخمسة آلاف دولار التي تحملها من أموال المخابرات الإسرائيلية بمبلغ عشرين ألف ليرة لبنانية، وهو مبلغ

جيد في حينها. ثم تقدمت بطلب للحصول على خط هاتفي للشقة، فسجّل الطلب تحت رقم / 3451/ ووعدت خيراً. ولكن الجيران أفادوها بأن تركيب الهاتف يلزمه «واسطة»، فتذكّرت عند ذلك صديقتها التي تدير محلاً تجارياً في شارع الحمراء، فذهبت إليها ورجتها باعتبارها لبنانية (بنت البلد) أن تدلَّها على «واسطة قوية» للحصول على الخط الهاتفي المنشود؛ فعرّفتها على موظف في إدارة الهاتف اللبنانية الذي أوضح لها أن الخطوط قليلة في منطقة عين الرمانة، ولكنه سيبذل جهده لتأمين خط لها في أقرب وقت، خصوصاً بعد أن حدّثته صديقتها اللبنانية عن الأحوال المادية لهذه السيّدة، وأنها على استعداد (للدفع)، حيث لم يَنْسَ هذا الموظف أن يقدم لها بطاقته (كارت فيزيت) التي تحمل عنوانه ورقم هاتفه للاتصال به عند الحاجة.

شكرت أمينة صديقتها وعادت إلى شقّتها وهي تفكر في هذا الموظف، فوجدت فيه صيداً ثميناً لمعاونتها في عملها التجسسي، تستخدمه كنافذة يمكنها الإطلالة منها على المجتمعات، فضلاً عما يمكنها أن تحصل عليه من معلومات عبره نظراً لكونه موظفاً في مصلحة الهاتف، فلم تترك الوقت يمضي، وقد أصبحت نفسيتها هي ذاتها نفسية جواسيس إسرائيل من حيث التضحية بكل شيء (حتى الشرف) مقابل الحصول على المطلوب. فاتصلت به من محل بقّال وطلبت منه الحضور إلى شقّتها للتباحث في موضوع الهاتف، فحضر مسرعاً، وهو الذي يرحب بل ويسعى جهده لإقامة مثل هذه العلاقات من وراء عمله في الهاتف. أما أمينة فقد أكرمت وفادته، ومن ضمن هذا الإكرام تناول الويسكي بعد الطعام، كما أقامت معه علاقة غرامية عربوناً لإيصال الخدمة الهاتفية لها.

سُرَّ الموظف كثيراً بهذا الصيد (امرأة في ريعان الشباب تقدم له نفسها على طبق من الويسكي) كل ذلك لأجل (الهاتف). فقام بإحضار صديق له وعرّفها عليه على أساس أنه يساعده في تأمين الهاتف، فقبلت إنشاء علاقة مع الثاني، وهي تضمر في نفسها أن تستدرجه للعمل معها في نطاق خلية جاسوسية لصالح المخابرات الإسرائيلية، فكتبت بذلك كله إلى «الموساد» في فيينا مع ذكر عنوانها حسب طلبهم. فجاءها الجواب أن تترك موضوع الخلية الجاسوسية جانباً وتنفذ المهمة التي جاءت من أجلها بمفردها (وهي وضع تقرير ومخطط شامل ومصوّر عن منازل ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية وهم: الشهيد زهير محسن، رئيس منظمة الصاعقة، وأبو الزعيم (عطاالله عطاالله) مسؤول المخابرات العسكرية في حركة فتح، والثالث من آل «بسيسو» كما جاء في اعترافها لاحقاً).

كانت أولى خطواتها أن استعلمت عن منزل أبو الزعيم في الريحانية على وجه التقريب، لكنها لم تقدر أن تستعلم عن مدخل المنزل وعن القوى التي تحرسه، فقررت الذهاب بنفسها إلى الريحانية، ووضعت الكاميرا على كتفها لتبدو كسائحة أجنبية. فاكتشفت مستشفى بالقرب من منزله فدخلته (كمريضة) لإجراء فحوصات عامة ليتسنّى لها الإقامة فيه ومراقبة وتصوير المنزل. لكنها وجدت أن شقق المستشفى لا تطل على المنزل بالشكل المطلوب، فخرجت منه في نفس اليوم بعد أن دفعت مبلغاً لا بأس به، وتوجهت إلى بناية تقع أمام بناية أبو الزعيم مباشرة، فاستقبلها الناطور ـ وكان من الجنسية المصرية ـ فسألته عن وجود شقة فارغة للإيجار، فأجابها بالنفي. ولكي لا تقطع الحوار معه، سألته إذا كان لديه أولاد، فأجابها بنعم، وقد أوهمته أنها تحب الأولاد وتهوى تصويرهم، ثم

طلبت منه أن يأتي بأولاده وزوجته المقيمين معه بنفس البناية لكي تلتقط بعض الصور معهم.

ذهب الناطور مسرعاً وجاء بزوجته وأولاده للسلام على هذه الست الطيبة، فرحّبت أمينة بهم وأعطت الزوجة خمسين ليرة لبنانية، وعشر ليرات لكل واحد من الأولاد. ثم طلبت الصعود إلى سطح البناية لالتقاط الصور. فأسرع الجميع حيث التقطت الجاسوسة من خلالهم بعض الصور لبناية أبو الزعيم المقابلة. وبعد انتهاء التصوير قدّمت لها زوجة الناطور الشاي، فسألتها أمينة إن كانت تطبخ الملوخية لأنها تحبها، فاعتذرت زوجة الناطور وصرّحت لها بأنها لم تذق الملوخية منذ وقت طويل (بسبب ضعف راتب زوجها) فقامت أمينة بإخراج مئتي ليرة لبنانية أعطتها للناطور ليعدّ لها الملوخية. وأنها ستحضر نهار غد لتناول هذه الأكلة التي تحبها معهم وفي منزلهم المتواضع. وعلى أساس المبدأ القائل: (أذكروا الفضل فيما بينكم) فقد تحدث ناطور البناية إلى أحد حراس الأمن في بناية أبو الزعيم عن السيّدة الأنيقة الطيبة هاوية التصوير والملوخية، فشكّ هذا الحارس بالأمر وأعلم رئيسه بذلك فوراً، فتقرر كشف حقيقة هذه السيّدة. وعندما حضرت في اليوم التالي جرى اعتقالها ثم تسليمها لأجهزة الأمن اللبنانية المختصة التي حققت معها فأنكرت أن تكون قد قامت بأي عمل يمس الأمن، وأنها مواطنة أردنية صالحة ودكتورة في علم النفس تحاول إنشاء مستشفى أو عيادة لها في بيروت لمساعدة اللبنانيين المعاقين عقلياً وجسدياً، فجرى إطلاق سراحها، حيث بادرت «أجهزة أمن الثورة الفلسطينية» باعتقالها في أول شهر أيلول/ سبتمبر سنة 1975 وأخضعت للتحقيق، فاعترفت بكل ما ذكر من أعمال التجسس لصالح المخابرات الإسرائيلية، وصودرت من شقتها

أدوات التجسس والفيلم الذي قامت بتصويره لبناية أبو الزعيم من خلال أولاد الناطور».

أما المخابرات الإسرائيلية «الموساد» التي كانت تنتظر منها المعلومات التي أوفدت لأجلها فقد انتظرت كثيراً. ولدى اطلاعها من الصحف اللبنانية على نبأ اعتقالها جنّ جنونها، وبدأت بإجراء اتصالات ومفاوضات من خلال الصليب الأحمر الدولي من أجل استعادتها. ونجح الصليب الأحمر بعد مفاوضات مع الثورة الفلسطينية على إعادة أمينة إلى إسرائيل مقابل إطلاق سراح أسيرين فلسطينيين هما:

1 ـ وليم نصار المعتقل في سجون إسرائيل منذ سنة 1968.

2 ـ محمد مهدي بسيسو المعتقل في سجون إسرائيل منذ سنة 1971.

بقي على الصليب الأحمر تأمين مكان التبادل، حيث جرى الاتصال مع الدكتور ليساريدس رئيس الحزب الاشتراكي القبرصي الذي قبل القيام بترتيب عملية التبادل على أرض مطار «لارنكا» الدولي في قبرص، بالتعاون مع وزير الداخلية القبرصي «بنيامين» والمخابرات القبرصية. وقد تحدّد يوم 13 شباط (فبراير) سنة 1980 موعداً لإجراء التبادل. فقامت السلطات القبرصية بإجراءات أمن مشدّدة في مطار «لارنكا» الدولي، منها انتشار المصفحات والدبابات حول المطار، وإخلاء المطار من السواتر أو ما يمكن استعماله كساتر لأية عملية عسكرية محتملة تعكّر عملية التبادل. كما سحبت جميع السيارات التابعة للخطوط الجوية المختلفة، والسلالم، وأبعدت جميع الطائرات المتواجدة في المطار عن المكان المخصص لوقوف الطائرة

الإسرائيلية. ومنعت الحركة تماماً في المطار والمباني المحيطة به منذ وصول الطائرة الإسرائيلية التي تقلّ الأسيرين وحتى إقلاعها. وقد تم التبادل بالتعاون مع السلطات القبرصية التي سهلت العملية. فقد حطّت الطائرة الإسرائيلية المقلّة للأسيرين في المطار، بعد أن أذن لها برج المراقبة، وبقيت في المدرج المعدّ لها مدة عشر دقائق بدون أن تفتح الأبواب خشية أن يكون هناك أي كمين أو تغيير في الخطة. ثم فتح باب الطائرة ونزل منها ضابط مخابرات إسرائيلي باللباس المدني ومندوب الصليب الأحمر الدولي، حيث تقدما باتجاه سيارة للأمن العام القبرصي كان بداخلها الجاسوسة أمينة المفتي وضابط من قوات أمن الثورة الفلسطينية ومندوب الصليب الأحمر. وقد بقي ضابط المخابرات الإسرائيلية وأمن الثورة الفلسطينية بعيدين عن بعضهما بينما تصافح مندوبا الصليب الأحمر ونقلت رغبة الضابط الإسرائيلي بالتعرّف على أمينة، أي مشاهدتها للتأكد. فتشاور مندوب الصليب الأحمر مع ضابط أمن الثورة الذي وافق على ذلك، فتقدم الضابط الإسرائيلي من السيارة وهو يحمل صورة الجاسوسة بيده، فتأكد أنها هي نفسها، فعاد إلى الطائرة وأنزل منها الأسيرين اللذين تبعاه حتى مكان وقوف مندوبي الصليب الأحمر فوقفا بجانبهما، ثم توجه مندوب الصليب الأحمر مع ضابط المخابرات الصهيوني إلى السيارة حيث نزلت منها أمينة وتوجّهت معهما إلى الطائرة الإسرائيلية التي عادت بهم إلى إسرائيل. ركب الأسيران سيارة الأمن العام ومعهما مندوب الصليب الأحمر وضابط أمن الثورة الفلسطينية وتوجهوا إلى مدينة «لارنكا». وفي مكان متفق عليه في الطريق كانت سيارة مدنيّة تقف بانتظارهم، حيث ركب الأسيران والضابط الفلسطيني تلك السيارة وعادوا إلى مطار لارنكا كمسافرين عاديين واستقلوا الطائرة إلى

بيروت. وفي اليوم التالي أصدرت وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) بياناً شكرت فيه تعاون الصليب الأحمر الدولي وجهوده الإنسانية كما شكرت الحكومة القبرصية على موافقتها بأن يتم التبادل على أراضيها.

والحقيقة، إن الثورة الفلسطينية عندما قبلت التفاوض لأجل تبادل الجاسوسة أمينة المفتي بالأسيرين الفلسطينيين وليم نصار ومحمد مهدي بسيسو كانت مقتنعة بأن هذين الأسيرين أغلى من أمينة المفتي بملايين المرات، ولأن هذه الجاسوسة لم تقم بنشاط هدّام خلال الأيام الأولى من وصولها إلى بيروت، من ناحية ثانية.

وإذا كانت أمينة المفتي أمينة بالاسم فقط، وليست أمينة على نفسها، فليس من الغرابة أن لا تكون أمينة على شعبها ووطنها وأمتها. وكم في هذا العصر من أناس يحملون أسماءهم الكبيرة، يتسترون بها للقيام بما لا يمتّ للإنسانية بصلة، في كثير من الأحيان.

آن كريستين روب(*)
(Anne Christine Robbe)
(-)

هي زوجة الجاسوس الألماني الشرقي رينر روب. وكانا يُلقَّبان بـ «نوباز» و «توركواز» ويعملان في حلف الأطلسي في بروكسل. تمّ تجنيد رينر روب من قبل الاستخبارات الألمانية الشرقية في العام 1968 حين كان طالباً. وقد قام روب وزوجته الإنكليزية، بين العامين 1977 و 1988، بتزويد جمهورية ألمانيا الديمقراطية بـ 1737 وثيقة سرية للغاية وتلقّيا مقابل ذلك 3000 مارك في الشهر. وقد جرى اعتقال «نوباز» و «توركواز» في تموز (يوليو) من العام 1993 وحوكما في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام التالي، حيث حُكم على «نوباز» بالسجن لمدة 12 عاماً وعلى زوجته «توركواز» بالسجن لمدة 22 عاماً.

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص322.

آن ماري ليسر(*)
(Ann Marie Lisser)
(1919 -   )

من أبرز الجاسوسات الألمانيات. وقد كانت حياتها سلسلة من المآسي والأعمال العظيمة. وهي الوحيدة التي استطاعت أن تعمل في قلب العدو طعناً وتمزيقاً.

كانت ابنة تاجر غني. وتعرفت، وهي ابنة ست عشرة سنة وتلميذة في معهد برليني، بقائد من قادة الحرس الألماني يدعى كارل فون فينانكي فأحبته. وكانت مغامرة، وكان حلماً لذيذاً. ولكن اليقظة كانت محزنة. فقد طردها والدها من بيته لمّا ظهرت ثمرة تلك المغامرة طفلاً ولد ميتاً.

وقد أراد فينانكي أن يتزوج بعشيقته، ولكن زعيمه لم يسمح له بذلك، فأسكنها غرفة صغيرة وتعهدها. واضطر لسد نفقاته الجديدة أن يطلب نقله من فرقته إلى فرقة أدنى مقاماً، ولكنها تتيح له أن يعيش عيشة بسيطة تتفق ومرتبه.

نقل فينانكي بعد حين إلى بروسيا الشرقية. أمّا آن ماري فقد

(*) **المرجع**: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل دقاق. دار المكشوف. بيروت. الطبعة الأولى 1947. ص51 ـ 63.

بقيت في برلين حيث اشتغلت بائعة في أحد المتاجر، ثم كاتبة اختزال في مكاتب مصانع كروب في برلين.

وطمع العشيقان في حياة سعيدة بعدما قبلاه من تضحيات وتحملاه من ألم البعاد. ولكن الحظ خانهما لأن الدائنين الذين كانوا يسايرون الضابط لمّا كان في فرقة الحرس الخاص، استهانوا به حين غدا ضابطاً في فرقة السكك الحديد - والناس من وراء مراكزهم! - فلاحقوه وصادروا معاشه، ورفض أهله أن يتعهدوا بوفاء ديونه، فاضطر إلى ترك الجيش.

وأنقذه أحد أصدقائه من ورطته. فقد كان نيكولاي في ذلك الزمان مكلفاً تنظيم التجسس على روسيا. ولمّا بلغه أمر فينانكي أراد أن يساعده، فقدمه إلى الكولونيل رئيس دائرة التجسس الألمانية في فرنسا وبلجيكا.

عهد إليه الكولونيل بمهمة سرية ليعجم عوده، فأداها أحسن أداء في أقل من أسبوعين. وبعد ثلاثة شهور كانت ديون الرجل كلها قد وفيت. وكلف فينانكي مراقبة أعمال التحصين التي كانت بلجيكا تقوم بها حول انفرس. فسافر إلى المنطقة المعينة تصحبه آن ماري التي ساعدته في مهمته مساعدة كبرى. ثم عهدت إليه الدائرة السرية الألمانية بدراسة شبكة الخطوط الحديدية وخطوط الاتصال التي كانت تمد نحو شارفيل - فردون في فرنسا.

ظل فينانكي وعشيقته أسبوعين يتجولان من قرية إلى قرية في تلك الربوع وليس في مظهرهما ما ينم على أنهما يتجسسان. واستطاعا أن يجمعا أخباراً ومعلومات قيمة، ورسما تخطيطاً للمنطقة ولوسائل الحماية والدفاع فيها.

كان الفضل في إبعاد الشبهة عنهما معرفتهما اللغة الفرنسية وجمال آن ماري وإجادتها الرسم وتلهيها به في أثناء تجوالها بحجة الهواية بينما كانت في الحقيقة تصور الأماكن المطلوب إليها وإلى عشيقها دراستها لحساب الدائرة السرية الألمانية.

وحدث أن كانت آن ماري في عصر أحد الأيام تتنزه في غابة فرانشوفال ومعها حقيبة ألوانها. فالتقت فجأة في أحد المنعطفات ضابطاً من القناصة يتأبط بندقيته. وسر الضابط بلقاء فتاة جميلة في تلك الغابة، فعرض عليها خدماته، وأجابها عن أسئلتها وأوضح لها ما استوضحته إياه. على أن الريبة راودته بسبب ما سألته من أمور تمت إلى شؤون الدفاع بصلة.

وأدركت المرأة أن الرجل أكثر انتباهاً وذكاء من القرويين الذين صادفتهم في أثناء إقامتها في الآردين. ولمّا عادت إلى فرانشوفال شعرت بأن الضابط يتبعها.

وبلغ الأمن العام في اليوم التالي خبر المرأة. وتعقب أحد مفوضي الدائرة، وهو المفوض فانيز، خطى الجاسوسين وأخذ يحصي عليهما حركاتهما. وأحست «آن» ذات مساء وهي في قاعة الاستراحة في فندق «فيلرز» على الفور أن ثمة عيناً تراقبها. وشعرت بالخوف من نظرات قروي كان جالساً في القاعة يدخن ويحتسي قدحاً من الجعة. وأخبرت فينانكي بمشاعرها وخوفها، فهدأ روعها.

وفي اليوم التالي توجه الجاسوسان إلى بلدة موهون التي كانت مركزاً للخطوط الحديدية، وتابعا عملهما في مراقبة حركة النقل وتصوير خطوط الاتصال خلسة. وتأكدا على حين غرة أن هناك من يطاردهما. فقد أبصرا القروي الذي كان بالأمس في قاعة الفندق، وقد أبدل ثوبه الريفي العتيق بثياب المدن.

وأيقنا أن السلامة في النجاة قبل الوقوع في الفخ، وأن عليهما مغادرة تلك البلاد حالاً، فقررا الهرب. وكانت أقرب الطرق ركوب القطار من شارلفيل إلى هيرسون. ولكنهما وبينما كان يهمان بالصعود إلى القطار، أبصرا طائفة من الرجال مصطفين حول الرصيف كأنهم ينتظرونهما. ولم تر آن ماري غير وسيلة وحيدة للهرب وهي الالتجاء إلى مطعم المحطة، فدخلته وصاحبها، وظلا مختبئين فيه ساعات عديدة. ولمّا شعرا بأن الرقابة خفت، تسللا من المحطة في سيارة أوصلتهما إلى بل - آر حيث ركبا سيارة ثانية طارت بهما إلى بوهان في بلجيكا.

اجتازا الحدود قبل فوات الأوان وقبل دقائق معدودة من صدور أوامر الأمن العام إلى مراكز الحدود بالتفتيش عنهما. وتوجها من بوهان إلى بورينغ ثم إلى دينان. وركبا القطار من لياج إلى كولون حيث اطمأنا إلى سلامتهما.

إلا أن خطراً آخر داهمهما. فقد أحس فينانكي عند وصولهما إلى الفندق بألم يمزق أحشاءه. فأسرع إلى الفراش حيث بقي ثمان وأربعين ساعة بين الموت والحياة. واستدعت آن ماري طبيباً ففحص المريض، فإذا هو مصاب بتسمم في الزائدة مع التهاب خطر، فأمر بنقله حالاً إلى مستشفى سان فانسان. ولكن الرجل دخل بعد قليل في النزع ولفظ أنفاسه الأخيرة بعد ست ساعات في أحضان حبيبته وفي الوقت الذي كان يستعد فيه لتسوية أموره وصديقته الشابة بعد أن لمع نجمه في عالم الجاسوسية.



لم تصدق آن ماري ما حدث. وبقيت مدة طويلة أمام جثة

فينانكي وقد لجمها الحزن على الرجل الذي أحبته وتعلقت به بأوثق الروابط. وجمدت كأن المصيبة صعقتها. ورقّت الراهبات اللواتي كن يصلين على الميت، لحالها، فنبهنها من تأملاتها الحزينة وسكونها المخيف، فانتبهت وفرّجت كربتها بالبكاء والنحيب.

ظلت الصبية ساهرة على الجثة تندبها حتى الصباح... وبدأت تشعر بالفراغ الذي ستخلفه هذه المصيبة في حياتها. ولم يتجرأ أحد على أن يسألها عن حقيقة الضابط. وأعطت الحاضرين عنوان عائلة الميت. وتذكرت أن الراحل أوصاها بأن تخبر الدائرة السرية الألمانية بحاله إذا حدث له حادث بواسطة رجل يدعى ماتيسيوس.

وبينما كانت إدارة المستشفى تبرق بالخبر إلى عائلة فينانكي، استجمعت آن ماري قواها وتوجهت إلى أقرب مركز بريد وأبرقت إلى ماتيسيوس في حي هيروارث في برلين.

لم تذق المرأة طعم الراحة ولا جفت دمعتها في اليومين اللذين قضتهما بانتظار عائلة فقيدها. فأخبروها بوصول شقيق الميت فتوقعت أن يقابلها مقابلة عطوفة، ولكنها منذ النظرة الأولى قرأت في عيني الشقيق حقد عائلة فينانكي كلها على التي أوصلت الضابط إلى أحد الدركات ولوثت شرفه. وانخرطت في البكاء تندب حظها العاثر. وزاد في ألمها أنهم منعوها من تشييع عزيزها إلى ضريحه.

اسودت الدنيا في عين المرأة وعجزت عن تحمل اليأس والإهانة معاً، واعتزمت أن تتخلص من حياة عجفاء، وسارعت إلى مسدس تستنتجد به لتنعم بالراحة الأبدية. وإذ كانت تهم بإطلاق النار طرق الباب ودخل عليها ضابط من حامية كولونيا واستأذنها في محادثتها. وبعد أن أعرب لها عن أسفه لما حدث سألها أن تسلمه أوراق الميت ليقدمها إلى ماتيسيوس.

وانتبهت آن ماري فجأة من أفكارها السوداء على داعي واجبها. وتذكرت الأوراق التي تتضمن نتيجة رحلتها وصاحبها إلى الأردين. وكانت هذه الأوراق مخبأة ضمن بطانة رداء الميت وقد أنساها الحزن أن تستردها. وأخبرت الرسول بذلك.

كان التابوت في كنيسة المستشفى ومن حوله شقيق الميت وأخته والكاهن يهم بالصلاة تمهيداً للدفن. وإذ بشرذمة من الجند تدخل وعلى رأسها ممثل النائب العام. وحمل الجنود التابوت إلى قلب المستشفى حيث فتحوه أمام آن ماري والنائب العام وضابطين. ومزقت المرأة بطانة رداء الميت وأخرجت الأوراق وقبلت حبيبها قبلة الوداع. ثم أغلق التابوت وأعيد إلى الكنيسة.

أصبحت آن ماري منذ ذلك اليوم من الجماعة العسكريين. ولمّا رافقها أحد الضباط إلى الفندق أخطرها بأن تسافر إلى برلين حالاً.

وحملها القطار إلى العاصمة. وفي المحطة رأت رجلاً يتقدم نحوها ويقدم نفسه على أنه كولونيل تابع للقيادة العليا، ورافقها إلى مكتب مدير الدائرة السرية الألمانية في قصر «هرفارتشتراسه».

أدخلت المرأة إلى مكتب فخم جلس في صدره كهل مهيب المنظر، أبيض الشعر. ودعاها الرجل إلى التقدم منه وطمأنها إلى مستقبلها ببضع كلمات، وشدد عزيمتها، وطلب إليها أن تشرح له مضمون الأوراق التي سلمتها بالأمس للنائب العام. فأقبلت على الوثائق توضح ما خفي منها وتبين حقيقة الأرقام المخطوطة عليها بمهارة أدهشت الكولونيل نيكولاي ورئيسه وبفطنة نادرة لفتت أنظارهما.

واستطال الشرح حتى المساء. وعبثاً حاول الكهل أن يحمل

المرأة على تناول طعام، فقد كانت منهوكة القوى زاهدة في كل شيء، واكتفت بالتمدد على مقعد طويل حيث استسلمت لنوم عميق.

وتحدث الكولونيل والرئيس الدوق دي برونسويك في أمر استخدام آن ماري في الدائرة. وبذل الكولونيل جهداً جباراً حتى حمل رئيسه على قبول آن ماري. فقد كان هذا لا يأمن جانبها وهي بعد صبية طرية العود لم تعركها الأيام. على أن الكولونيل نيكولاي تعهد بأنها ستكون عند حسن الظنّ بها بفضل مزاياها المدهشة وذكائها وصفاء ذهنها. وأعلن أن شعور الصبية بأنها في عملها إنما تكمل الرسالة التي بدأ حبيبها بأدائها، يدفعها إلى اتقان هذا العمل وإلى الإخلاص والأمانة والإحساس بالواجب الملقى على عاتقها...

قبل برونسويك بأن تعمل آن ماري في عداد العاملين. وعادت المرأة من لدن الرئيس، ورافقها الكولونيل وأسدى إليها النصح، وعرف كيف يجعل هذا النصح أبوياً عطوفاً حتى أنها عرضت التمرس بالمهام التي كتب لها أن تقوم بها. ولا عجب فقد شعرت في هذه الحياة بالوحدة والوحشة ولم يبق لها من رابطة بالدنيا إلاّ الأمل بتأدية مهمة تشغلها عن كل ما حولها وتجد فيها سلوى باستذكار حبيبها أبداً، ووسيلة إلى السير على خطاه ومتابعة ما بدأه.

❀ ❀ ❀

ظلت آن ماري ليسر شهوراً عديدة تلميذة في دائرة الاستعلامات الألمانية. وتلقت دروساً تضاهي دروس ضابط ألماني في أول سيرته العسكرية كمبادىء القتال وعلم التحصين والجغرافيا ودرس طبيعة الأرض. ولقنها ضباط من المدفعية والمشاة والأعمال التابعة للجيش والسكك الحديدية والاقتصاد، طرق تقدير أهمية موقع أو نهر أو خط

حديدي لتستطيع معرفة ما يعرض لها في أثناء حياتها الجديدة وتقدير أهميته وخطره حق قدرهما والإفادة من ذلك في عملها وفي أخبار الدائرة السرية الألمانية. وعلموها أساليب وفنوناً أخرى لا بد من معرفتها عند البحث في أسرار العدو وقضاياه واستعداداته ونتاجه وأحواله الاقتصادية وقوته وأنظمته.

ولمّا أنهت مدة التدريب والدرس بنجاح كانت أول مهمة عهدت الدائرة إليها بها على سبيل التجربة فضح أسرار الدفاع حول لياج ونامور في بلجيكا، وهي أسرار اهتمت لها القيادة الألمانية العسكرية كل الاهتمام.

قامت بالمهمة خير قيام. وسر بها رؤساؤها. وكان الكولونيل نيكولاي قد عين رئيساً لدائرة الاستعلامات في القيادة العليا، فكلفها مهمة ثانية في فرنسا، ثم ثالثة في بلجيكا حيث نجت بأعجوبة من حادث كاد يودي بحياتها ويوقعها في أيدي رجال مكافحة التجسس. وسافرت بعدئذ إلى إنكلترا حيث راقبها موظفو الدائرة السرية البريطانية بعد أن تلقوا من بلجيكا أخباراً تلفت أنظارهم إليها. وأحست بالخطر فأسرعت بالعودة إلى ألمانيا.

وأرسلتها الدائرة إلى لوغانو لتستريح ردحاً من الزمن. وفي الثامن من تموز (يوليو) 1914 جاءها إلى الدار التي استأجرتها لفترة الراحة، رسول من الكولونيل نيكولاي يأمرها بالإقامة في ميلانو بإيطاليا.

تعرفت آن ماري في ميلانو بضابط بافاري يدعى كارل شنيكلر بعثته القيادة الألمانية بمهمة رسمية. كان الضابط عسكرياً ممتازاً، ولكنه كان يجهل مهنة المراقبة والتجسس واستطلاع الأخبار فلم يف

بما وعد. وقد كلفته القيادة أن يحصل على معلومات كافية مفيدة عن استعداد السلطة العسكرية الطليانية في مقاطعة لومبارديا وعمّا تبنيه هذه السلطة من تحصينات ووسائل دفاع، وأعطته لإنهاء المهمة شهراً.

ولكن تبيّن بعدئذ أن شهراً مدة طويلة لأن الدوائر العسكرية الألمانية ألحت في الحصول على المعلومات المطلوبة في ثمانية أيام، أي حتى الخامس عشر من تموز. وعلى هذا انتدبت آن ماري للعمل. ورسمت المرأة قبل سفرها خطة على ضوء بعض المعلومات الأولية التي تلقاها نيكولاي من الضابط البافاري. وكان أول عمل قامت به عند وصولها إلى ميلانو أنها ضربت موعداً للضابط شنيكلر. فلما التقيا بادأته بخطة العمل دون مقدمات، وأخبرته بأن من الواجب إنشاء مكتب للنشر والإعلان حالاً.

وأسرع الضابط، وقد أخذ باندفاع المرأة وسلطانها، إلى المدينة واستأجر محلاً في مركزها الرئيسي، انتقلت إليه آن ماري ورتبت أثاثه بسرعة وأرسلت من يبتاع لها جميع الصحف المحلية، وأخذت بمعونة الضابط ورجاله تجمع الإعلانات والمقالات المتعلقة بأعمال الإنشاء العسكرية وطلبات المزايدة والعروض وتفحصها فحصاً دقيقاً.

استطاعت المرأة من هذا السبيل أن تعرف معظم مراكز أعمال الإنشاء العسكري، فأرسلت أعوانها إلى مراكز معينة، وسافرت هي إلى المناطق الرئيسية فلم تخف عليها حركة من نشاط الطليان في بناء حصونهم الدفاعية. ولمّا عادت إلى ميلانو حررت تقريراً طويلاً، وغادرت المدينة في التاسع عشر من تموز، وأعطت بياناً خطياً بأعمالها لرئيسها.

وأعجب برونسويك ونيكولاي بالتقرير الذي تضمن، بجانب

أخبار نشاط الطليان العسكري، آراء شخصية للجاسوسة ظهر أنها أهم من الأخبار بكثير. من ذلك قولها أن إيطاليا تبتعد عن الحلف الذي تترأسه ألمانيا أكثر فأكثر، وأن عداءها البعيد الأصول للنمسا قد يدفعها في حالة نشوب حرب للانحياز إلى الطرف المعادي لألمانيا وحلفائها.

وذكرت المرأة فضلاً عن ذلك أن تيارات عديدة تتنازع إيطاليا، وأنه إذا كانت سياسة الأمير بولوف تضمن بقاء إيطاليا في الحلف الثلاثي وكذلك مساعي الأميرة كامبو ريل قريبة مينغيتي القوية النفوذ، فإن نشاط سفير فرنسا ومساعيه لدى الساسة الطليان ومهارته في توجيههم، تهدد بإبعاد إيطاليا عن الحظيرة الجرمانية.

كان لهذه الآراء المبنية على نظر آن ماري الثاقب وتحليلها الدقيق للحالة السياسية في إيطاليا، أثر فعال في برونسويك ونيكولاي.

❀ ❀ ❀

قضت آن ماري ليسر، بعد إعلان الحرب، واحداً وخمسين شهراً في عمل متواصل تجلت في أثنائها مزاياها النادرة في مضمار الحرب الخفية الحافلة بالمخاطر والأحداث الجسام. وغدت أخلص معاوني الكولونيل نيكولاي على الإطلاق، والجاسوس المدني الألماني الوحيد الذي سمح له بالدخول إلى مركز هيئة أركان الحرب العليا ومخالطة كبار قادة الجيش ومخاطبتهم بدون كلفة.

وفي آب (أغسطس) 1915، وقد أصبحت آن ماري تعرف باسم ي ـ 4 ـ ج، عهد إليها بقيادة قسم من الدائرة السرية الألمانية في الغرب فأقامت في باريس حيث جهدت في بعث نشاط دوائر

أخبار نشاط الطليان العسكري، آراء شخصية للجاسوسة ظهر أنها أهم من الأخبار بكثير. من ذلك قولها أن إيطاليا تبتعد عن الحلف الذي تترأسه ألمانيا أكثر فأكثر، وأن عداءها البعيد الأصول للنمسا قد يدفعها في حالة نشوب حرب للانحياز إلى الطرف المعادي لألمانيا وحلفائها.

وذكرت المرأة فضلاً عن ذلك أن تيارات عديدة تتنازع إيطاليا، وأنه إذا كانت سياسة الأمير بولوف تضمن بقاء إيطاليا في الحلف الثلاثي وكذلك مساعي الأميرة كامبو ريل قريبة مينغيتي القوية النفوذ، فإن نشاط سفير فرنسا ومساعيه لدى الساسة الطليان ومهارته في توجيههم، تهدد بإبعاد إيطاليا عن الحظيرة الجرمانية.

كان لهذه الآراء المبنية على نظر آن ماري الثاقب وتحليلها الدقيق للحالة السياسية في إيطاليا، أثر فعال في برونسويك ونيكولاي.

❀ ❀ ❀

قضت آن ماري ليسر، بعد إعلان الحرب، واحداً وخمسين شهراً في عمل متواصل تجلت في أثنائها مزاياها النادرة في مضمار الحرب الخفية الحافلة بالمخاطر والأحداث الجسام. وغدت أخلص معاوني الكولونيل نيكولاي على الإطلاق، والجاسوس المدني الألماني الوحيد الذي سمح له بالدخول إلى مركز هيئة أركان الحرب العليا ومخالطة كبار قادة الجيش ومخاطبتهم بدون كلفة.

وفي آب (أغسطس) 1915، وقد أصبحت آن ماري تعرف باسم ي ـ 4 ـ ج، عهد إليها بقيادة قسم من الدائرة السرية الألمانية في الغرب فأقامت في باريس حيث جهدت في بعث نشاط دوائر

الاستعلامات التي لم تصب بما أصيبت به زميلاتها في إنكلترا على يد الدوائر السرية الإنكليزية من محق إجماعي، ولكنها رأت أن تشدد في الحرص خوفاً من امتداد أيدي العدو إليها.

وقد رأت الجاسوسة أن هذا التشديد في الحرص مبالغ فيه ولا داعي له. وأكبت على تنظيم الدوائر المذكورة تنظيماً تجلت فيه القسوة. بل الوحشية، إذ رافقت التنظيم حوادث قتل كثيرة.

كانت أعمال آن ماري ليسر عظيمة الأهمية، وفاقت كل ما قامت به جاسوسة لحساب ألمانيا. ولكن الصيت غلاب. فقد عزيت إلى مدموازيل دو كتور مهمات عديدة في فرنسا. وأثبتت المعلومات التي استقاها الأميركيون في العام 1945 من ألمانيا أن آن ماري ليسر سافرت إلى فرنسا أربعاً وعشرين مرة بين 1914 و 1918، منها سبع في خريف وشتاء 1914 ـ 1915، واثنتان في العام 1916، وخمس في العام 1917 ومطلع 1918 بالسكة الحديد، وأنها سافرت مرتين من طريق سويسرا، ومرات من هولندا وإنكلترا في العام 1916 وفي المرة الأخيرة من إسبانيا في غواصة.

وقد كان لولب نشاطها تنظيم شبكات استعلامات وتجسس خلف الخطوط الفرنسية ـ البريطانية. أمّا في ألمانيا وبلجيكا فقد كانت آن ماري ليسر خصماً عنيداً مخيفاً لجواسيس الدول المتحالفة. وثبت أنها قدمت إلى المحاكم العسكرية الألمانية اثنين وثمانين جاسوساً من البلجيكيين والفرنسيين والإنكليز. ويبدو أن هذا الرقم ضئيل جداً بالنسبة إلى ضحاياها الذين قتلتهم بيدها، أو دست لهم السم، وكان السم من أسلحتها المفضلة.



تحولت الفتاة الجميلة الوديعة التي عرفها فينانكي إلى امرأة شرسة الطباع وحشية المزاج، حتى أنها أخذت تدمن المخدرات لتستطيع متابعة أعمالها الخطرة المرعبة أو لتنسى ماضيها وأفعالها.

وقد سعت إبان الحرب في الكيد لعائلة فينانكي والحط من قدرها بقدر ما سعت في النيل من أعداء بلادها، فاشترت الأراضي والقصر التي كانت العائلة تملكها طمعاً بالإقامة فيها والعيش بقرب ضريح الرجل الذي أحبته وخطفه منها الموت.

ولكن هزيمة ألمانيا هدمت أمانيها. فقد كان قصر فينانكي مبنياً على الأراضي التي أعيدت إلى بولونيا بعد الحرب. ووضعت أملاكها تحت الحراسة، فجنّت وكانت نهايتها في مستشفى لأمراض العقل في سويسرا.

آنّا بيلين مونتيس(*)
(Anna Bilinn Montess)
(- 1957)

هي إحدى عميلات المخابرات الكوبية في قلب المخابرات العسكرية الأميركية. ففي 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 2004 ذكرت صحيفة «وول ستريت جورنال» الأميركية أن آنّا بيلين مونتيس (47 عاماً) التي اعتقلت بعد أحداث أيلول (سبتمبر) 2001 بتهمة التجسس لصالح كوبا، وكانت تعمل رئيسة قسم مختص بشؤون كوبا وأميركا اللاتينية في المخابرات العسكرية الأميركية، صدر قرار قضائي بسجنها لمدة 25 عاماً. وكانت النيابة العامة قد طالبت بإعدامها بسبب خطورة تجسسها لصالح كوبا.

لكن هذه المرأة الأميركية ذات الأصول البورتوريكية لم تكن دوافعها للتعاون مع المخابرات الكوبية وفيديل كاسترو مادية، أي ناجمة عن الرغبة في كسب المال على غرار العديد من الجواسيس الأميركيين لصالح موسكو، بل كانت دوافعها إنسانية ناجمة عن التعاطف مع شعوب أميركا اللاتينية وكوبا. فبورتوريكو وإن كانت تقع في القارة الأميركية إلا أن معظم سكانها من الذين يتحدثون الإسبانية

(*) المرجع: «المحرر العربي» العدد (371) 15 ـ 21 تشرين الثاني/ نوفمبر.

إلى جانب الإنكليزية وهم من الشعوب المسالمة والمتعاطفة في ما بينها.

ولدت الآنسة مونتيس عام 1957 وكان والدها من المختصين في علم النفس. درست في جامعة فرجينيا وتخرجت منها عام 1979. وفي عام 1988 نالت ماجستير من جامعة جونز هوبكينز في الدراسات الدولية الحديثة. وأثناء دراسة الماجستير تم توظيفها عام 1985 في وكالة المخابرات العسكرية (دي.آي.إي) (DIA)، التابعة لوزارة الدفاع.

صعود متدرج

في قسم مختص بمتابعة شؤون أميركا اللاتينية، ومن خلال عملها هذا، كانت تطلع على معلومات فائقة السرية حول نشاطات (دي.آي.إي) التجسسية في تلك السنوات. وكانت مهمتها الإطلاع على هذه المعلومات بالإنكليزية والإسبانية واستخلاص النتائج والمعطيات، بل ووضع المقترحات أيضاً. وفي عام 1997 وقّعت مونتيس على تعهد يوفر لها الإطلاع على مصادر معلومات من «برنامج الدخول الخاص» الذي جعلها من كبار المحللين والعاملين في وكالة التجسس هذه. وكانت في ذلك الوقت مسؤولة عن كوبا ومتابعة شؤونها ووضع التوصيات المناسبة بشأنها. وكانت هذه التوصيات لا يطلع عليها سوى قسم محدود في وزارة الدفاع ويستند إليها وزير الدفاع الأميركي نفسه في قيامه بمهامه واتخاذ القرارات.

وتقول مصادر أميركية إن شكوكاً راودت بعض المسؤولين في وكالة (دي.آي.إي) حولها جعلت المخابرات الفيدرالية الاتحادية (إف.بي.آي) تقوم قبل خمسة أشهر من اعتقالها بتفتيش منزلها دون

علمها والإطلاع على محتويات كومبيوترها الخاص هناك وكذلك على بعض الرقائق الخاصة بالكومبيوتر (ديسك).

وقام رجال المخابرات الفيدرالية بنسخ عدد من محتويات ما هو مخزن في كومبيوترها وعدد من الرقائق الخاصة بالكومبيوتر. وتمكن هؤلاء من نسخ معلومات كانت قد تعاملت معها مونتيس ثم محتها وأزالتها نهائياً من ذاكرة الكومبيوتر.

رسالة لم يبتلعها الكومبيوتر

لكن مكتب التحقيقات الفيدرالي تمكن بمساعدة ضابط من المكتب من إعادة إحياء ما اعتقدت الآنسة مونتيس أنها أزالته من كومبيوترها. وعند طباعة الوثيقة المحياة تبين أنها عبارة عن رسالة بالإسبانية وكانت عند وصلها مؤلفة من 11 صفحة، لكنها لم تكن تحمل أي دلالة على تاريخ وصولها أو نسخها أو خزنها. ومع ذلك ظهر في الرسالة طلب موجه إلى مونتيس يدعوها فيه المسؤول عنها في المخابرات الكوبية إلى «السفر إلى «محطة مرتفعات الصداقة» في 23/ 11 من دون الإشارة إلى السنة لكن مع تحديد يوم السبت فقط، ومن خلال ذلك توصل مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى أن هذه الرسالة وصلت بعد تاريخ 5/ 10/ 1996 وهو تاريخ شرائها الكومبيوتر المحمول الذي خزن هذه الرسالة ثم أزالتها هي منه. وبعد الإطلاع على الفحص الكامل لهذه الرسالة تبين أن فيه ما يلي: «يتعين أن تذهبي إلى برنامج (وايب) (WIPE) وإزالة ذلك الملف منه بموجب الخطوات التي ناقشناها معاً أثناء اتصالاتنا. وهذا الإجراء لازم وأساسي يتعين أن تقومي به في كل مرة تستقبلين بها رسائل عبر اللاسلكي أو عبر رقائق الكومبيوتر ـ ديسك».

وعثر ضباط المخابرات الاتحادية في منزلها أيضاً على راديو من طراز (سوني) وضع في مكان سري في غرفة النوم. فقام الضباط بتشغيل الراديو لمعرفة ما إذا كان يستقبل. ثم وجدوا سماعة تستخدم في الاستماع إلى الموجات القصيرة وتتيح للمرء الإصغاء لهذه الموجات بشكل دقيق ودون خروج الصوت من الراديو.

وتضمنت الرسالة أرقام الذبذبات والموجات التي تتخاطب فيها عبر اللاسلكي والراديو مع المسؤول عنها في المخابرات الكوبية. **وتطابق عدد من هذه الأرقام مع ما تمكنت في السابق أجهزة المخابرات الاتحادية الفيدرالية من تسجيله ولم تستطع العثور في ذلك الوقت على مصدره وعلى الموقع الذي يستخدمه. فتبين بعد هذا التطابق أن الموقع هو منزل الآنسة مونتيس.**

وفي قاعة المحكمة نفسها قدم مكتب التحقيقات الفيدرالي وثيقة تثبت أن الآنسة مونتيس كشفت للمخابرات الكوبية عام 1996 شخصية أميركية كانت تقوم بمهمة تجسسية في كوبا وأطلعت المخابرات الكوبية على طبيعة المهمة والجاسوس الأميركي الذي سينفذها. فبموجب مسؤوليتها عن كوبا في قسم التحليل التابع لوكالة (دي.آي.إي) كانت مونتيس قادرة على الإطلاع على الكثير من المعلومات.

تضليل الإدارة

لكن هذا النوع من النشاط الذي قامت به مونتيس لم يكن النوع الوحيد، فقد قامت بنوع آخر من النشاط الذي ضللت من خلاله أصحاب القرار في الإدارة الأميركية ووزارة الدفاع حول ما يعدونه أو ما يمكن أن يعدونه ضد كوبا وفيديل كاسترو. فبعد خبرة 16 عاماً في

العمل في وكالة (دي.آي.إي) أصبحت مونتيس ذات ثقة في التقرير الذي تعده حول تقدير قوة كوبا العسكرية أو تقدير ما يمكن أن تقوم به من أعمال ضد المصالح الأميركية. فهي أصبحت ذات تأثير بموجب ما تقوله صحيفة «وول ستريت جورنال» على مجلس المخابرات القومي الأميركي في كل ما يتعلق بكوبا.

وتقول صحيفة «وول ستريت جورنال»: «وفي الشهادات الرسمية التي أدلى بها عدد من ضباط المخابرات الأميركية في المحكمة تبين أن الآنسة مونتيس لم تكن تزود المخابرات الكوبية بالمعلومات المهمة عن مخططات السي.آي.إي ضد كوبا فحسب، بل كانت تقوم بتضليل أصحاب القرار في وزارة الدفاع حول كوبا بمعلومات تدفع المسؤولين في القيادة العسكرية والسياسية الأميركية إلى عدم رؤية ما تمثله كوبا من أخطار.

ففي عام 1998 كان وزير الدفاع الأميركي كوهين قد أصدر تقريراً مهماً أعلن فيه أن كوبا لا تمثل أي خطر عسكري على الولايات المتحدة، دون أن يتضمن التقرير أي حساب لأخطار أسلحة الدمار الشامل التي تقوم كوبا بتطويرها. وكانت الشخصية الرئيسة والمركزية التي وفرت المعلومات التي استند إليها هذا التقرير المهم هي الآنسة مونتيس، بل إنها هي التي وضعت مسودة هذا التقرير».

وفي العام نفسه، ذكر الجنرال المتقاعد جاك شيهان وهو من قادة (المارينز) سابقاً لعدد من الأميركيين الذين زاروا كوبا واجتمعوا بكاسترو في كوبا أن واشنطن يتعين عليها التعامل مع النظام الكوبي بلطف ومودة وأكد لهم قائلاً: «وهذا ما تدعمه معلومات أجهزة مخابراتنا تماماً لأن كوبا بموجب ذلك لا تشكل أي خطر عسكري

علينا». ورغم أن الفارين من كوبا كانوا يقدمون معلومات مغايرة حين يلجأون إلى الولايات المتحدة، إلا أن أجهزة المخابرات كانت تتأثر أيضاً بتحليلات مونتيس، وبالإضافة إلى هذا تمكنت مونتيس من توفير معلومات للمخابرات الكوبية حول الجواسيس الذين ترسلهم وكالة المخابرات العسكرية (آي.دي.إي) إلى كوبا تحت أسماء وصفات مختلفة. وهذا ما جعل السلطات الكوبية تقبض على عدد منهم وبطريقة لا تكشف علاقة مونتيس مع المخابرات الكوبية.

أنّا ستيبانوفنا ديميدوف(*)
(Anna Stepanovna Dimidov)
(-   )

كانت وصيفة القيصرة الروسية وجاسوسة موظفة في دائرة التجسس الألمانية.

ما المهمة التي أوكلت إليها؟ وما مدى النجاح الذي أحرزته؟.

في الحقيقة، كانت دوائر التجسس الألمانية في آب (أغسطس) 1914، بعد سنة من تنظيمها على يد نيكولاي، تستخدم ثلاثمائة وسبعين امرأة، منهن ست وثمانون جاسوسة من الدرجة الأولى وفي مصاف الرئيسات، في الشؤون السياسية أو العسكرية.

وكان ثلث هذه النسوة يشتغلن في روسيا حيث استطاعت دائرة الاستعلامات الألمانية أن توظف أعواناً لها في الجيش وسلاح البحر وجميع دوائر الحكومة، وفي البلاط والمؤسسات الصناعية والتجارية.

وترأس المنظمة الجاسوسية النسائية وتوابعها في روسيا كولونيل من أركان الحرب تساعده امرأتان ألمانيتان. وقد تسلمت هاتان

(*) **المرجع**: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل دقاق. دار المكشوف 1947. ص64 ـ 68.

المرأتان فيما بعد الرئاسة وإدارة الدعاية لمنع روسيا من التسلح أولاً، ثم لإثارة الشعب على الحكومة.

وقد وسع نطاق هذه المنظمة الموجودة في روسيا منذ 1914، الضابط بويرميشتر الذي كان من أبرز ضباط دائرة الاستعلامات الألمانية في أوروبا الشرقية، بمعونة بعض الرفاق المولودين في روسيا والذين أجادوا اللغة الروسية كاللغة الألمانية. ووظف عدة مئات من المعاونين، وقام بأعمال مدهشة كانت عظيمة الأثر في سير الحرب.

والحق يقال إن انتصار الألمان على الروس في تاننبرغ لم يكن نتيجة مداورة عسكرية محكمة أو عملاً عسكرياً اعتمد على القوة والمفاجأة، بل كان الفضل فيه لخيانة حاك الألمان خيوطها باستخدامهم في ذلك الزمان امرأة سياسي من رجال الحكومة رفيع المقام، وعشيقها الضابط مرافق وزير الحرب الروسي.

ولقد كتب كثيراً عن «خيانة» قيصرة روسيا. واتفق لي أن فاتحت في هذا الصدد جنرالاً روسياً شهيراً ذاع صيته فيما بعد، وكان مطلعاً على قضايا الاستعلام السياسي والعسكري، فحصلت منه على طائفة من الوثائق والمعلومات ليس هذا الوقت ملائماً لنشرها. وإليك ما قاله لي (أي لجان بردان) عن القيصرة في معرض حديثه:

«في اعتقادي أن أحسن أعوان دائرة من دوائر الاستعلامات هم أولئك الذين يشتغلون لها بدون أن يدركوا ماذا يصنعون.

لقد درست مَحافظ العهد القيصري والقيادة الروسية العليا قبل عهد كيرنسكي، ورجعت إلى وثائق قضائية وأخرى خصوصية، فثبت لي أن قيصرة روسيا، بالرغم من معارضتها في استمرار الحرب وإلحاحها على القيصر بمفاوضة ألمانيا لعقد صلح منفرد معها، لم تقم

رسمياً بأي عمل ضد روسيا، ولا أعطت لأعدائنا أي خبر، ولا أفشت أي سر عن عمد وتبصر. ولكن الحاشية كانت موبوءة ومكتظة بالجواسيس الألمان وأعوانهم. من ذلك أن **أنّا ستيبانوفنا ديميدوف** وصيفة القيصرة، وقد قتلت مع سيدتها في مجزرة إيكاتيرينانبورغ، كانت منذ العام 1912 موظفة في دائرة التجسس الألمانية.

ثم انضمت إليها في العمل بعد حين فتاة تدعى أنّا ألكسندروفنا فيروبوفا، وكانت فتاة من أرقى الطبقات في روسيا تدعى مارغريت سيرغييفنا خيتروفو همزة الوصل بين الجواسيس الألمان في البلاط القيصري، وامرأة من أقارب بويرميشتر تترأس قسماً من دوائر نيكولاي وتتصل مباشرة بالقيادة الألمانية العليا.

وقد استطاعت ألمانيا أن تطلع على نيات الروس وخططهم بفضل أعوانها الذين كانوا يوافونها بأحاديث القيصر والقيصرة حرفاً حرفاً في أقل من ثمان وأربعين ساعة. وكان جواسيس الألمان يسافرون كل يوم إلى فنلندا التي آوت كثيرين من أعوان الدوائر السرية الألمانية بالرغم من أنها ظلت حتى الثورة مقاطعة روسية، فينقلون الأخبار إلى رفاقهم.

وخدم كثير من الزعماء والضباط الفنلنديين ألمانيا مدفوعين بحقدهم على روسيا وبالوعود التي قطعتها ألمانيا بواسطة جاسوسة مجرية للعناصر الفنلندية المطالبة بالانفصال عن روسيا».

لمّا لم تعقد روسيا مع الألمان صلحاً منفرداً، أوعزت برلين إلى جواسيسها وأعوانها بإثارة السكان على الحكومة القيصرية، ففعلوا ووفقوا، وأحدثوا اضطراباً وتمرداً في صفوف الجيش الروسي.

وحين تسلم السوفيات زمام الحكم تبدلت بعض الوجوه في

شبكة التجسس الألمانية في روسيا، ولكن روحها بقيت في عهد الاتحاد السوفياتي كما كانت عليه في عهد روسيا القيصرية. ولم يضعف عمل الجواسيس الألمان في الاتحاد السوفياتي إلاّ بعد العام 1930. ولم يكن سبب هذا الضعف انخفاضاً في عدد الجواسيس والأعوان بل اضطرار كبار الجواسيس ومهرتهم إلى الهرب وإبدالهم بجماعة أقل خبرة وقدرة ومهارة.

على أن الألمان وجدوا بضع جاسوسات من نساء الطبقة الروسية الراقية، رضين بالاشتغال لحساب الرايخ طمعاً في الربح وانتقاماً من البلاشفة.

ومن الخطأ الادعاء أن تجسس الألمان على السوفيات لم يجدهم نفعاً أو، كما زعم كثيرون، أن دوائر الرايخ السرية كانت تجهل حقيقة قوة الاتحاد السوفياتي في العام 1941. فقد اشتغل النازيون بنشاط في تلك البلاد. وكان لهم فيها جاسوسات شهيرات إليك أعمال أشهرهن:

كانت السيدة ب. . .، وهي من أقرباء عائلات يهودية ألمانية وإنكليزية كبيرة، قد انخرطت في سلك دائرة الاستعلامات الألمانية منذ العام 1918. وفي العام 1941 عينت رئيسة قسم التجسس في منطقة كييف في روسيا. وفي الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر) 1941، غداة سقوط هذه المدينة في أيدي الألمان، استقبل الجنرال فون رونشتيد قائد الجيوش الألمانية في جنوبي روسيا، بحضور كبار القادة والضباط الألمان والرومانيين، السيدة ب. . . وبوّأها مكان الصدارة إلى مائدته وشكرها علانية باسم الفوهرر على الخدمات الجليلة التي أسدتها للرايخ مدة خمس وعشرين سنة، وقال: «لقد

استطعنا بفضلك وفضل معاونيك البواسل وما أسديتموه من العون الخفي لجيوشنا، أن نعرف مبلغ قوة أعدائنا الروس واستعداداتهم، وغالباً ما اكتشفنا نياتهم وفضحنا خططهم».

كوفئت السيدة ب... على خدماتها مكافأة عظيمة، وقدر النازيون أعمالها حق قدرها. ويظهر أن الروس لم يطلعوا في البداية على الدور الذي مثلته في بلادهم. ومن عجب أنها ظلت طوال بضعة شهور في فيينا، بعد أن احتلها الروس، موضع حفاوة الروس وإكرامهم. فما أقاموا حفلة إلاً دعوها إليها فظهرت بين الجمع بوجهها الجميل المستبشر، ومصاغها الكثير بالرغم من تخطّيها الستين.

ولكنها اختفت فجأة في تشرين الأول 1945... فهل اعتقلها رجال الشرطة السرية السوفياتية وجازوها خفية على ما سببت لروسيا من ضرر؟ أم أن بعض اللصوص اختطفوها طمعاً في مجوهراتها؟ أم أنها عادت إلى عملها في خدمة الجاسوسية الألمانية وتسترت لاجتناب الفضيحة؟.

هذه أسئلة ليس لها إلى اليوم جواب شاف.

أنجا جورجون أو (أنجالور مويرك)(*)
(Anja Gorgonn)
(1931 -)

هي إحدى عميلات المخابرات السوفياتية التي جنّدها العميل لوديك للعمل ضد النازية.

إذ في أول شهر أيار (مايو) 1955 استدعي لوديك إلى براغ حيث أبلغه مسؤولو الحزب أنه قد تم اختياره للعمل في المخابرات السوفياتية (كي.جي.بي) وربما استدعى عمله الجديد بقاءه سنين عديدة في الخارج، أو قد تعرضت حياته للخطر فقبل لوديك على الفور، وبقي في براغ ليعيش فترة في شقة جميلة تمهيداً للذهاب إلى ألمانيا الشرقية ليتعلم اللغة الألمانية ثم ينتقل بعد فترة إلى ألمانيا الغربية ليشترك في محاربة موجة النازية الحديثة. وبالفعل توجه إلى مدينة (هال) الجامعية القديمة ليتابع هناك محاضرات باللغة الألمانية، وفي نفس الوقت ليتدرب على أيدي ضباط الكي.جي.بي المتواجدين بالقرب من برلين على أعمال التجسس. وقد عثرت له المخابرات السوفياتية على هوية مستعارة فكان يتجول في المنطقة كمندوب تجاري سوفياتي ولد في تشيكوسلوفاكيا التي انضمت إلى الاتحاد السوفياتي

(*) المرجع: سعيد الجزائري «ملف الثمانينات عن حرب المخابرات» ص214 ـ 230.

عام 1945، الشيء الذي يفسر لهجته التشيكية وعدم اتقانه اللغة الروسية. وأبلغه مدربوه من ضباط الكي.جي.بي أن عليه التوجه إلى الاتحاد السوفياتي أولاً وإلى مقر الكي.جي.بي رأساً، وهناك تعرّض إلى استجواب أطباء نفسيّين سوفيات وإلى استجوابات تتعلق بآرائه الحزبية والسياسية ونجح في اجتيازها نجاحاً باهراً. وعندما عاد من رحلته إلى موسكو أبلغه رؤساؤه أنه بعد هذا الاختبار أصبح عضواً رسمياً عاملاً في المخابرات السوفياتية وأصبح له إسماً حركياً هو «دوغلاس». . .

أنجا جورجون

حب الجواسيس

في مكتبة الجامعة تعرّف لوديك الذي أصبح اسمه دوغلاس على طالبة من أصل ألماني تدعى «**أنجا جورجون**» وكان والداها قد اعتنقا الشيوعية لكراهيتهم الشديدة لهتلر. وكانت أنجا بطبيعة الحال مثل والديها عضوة في الحزب الشيوعي وأخذت على عاتقها تلقين لوديك مبادىء اللغة الألمانية. ثم استمرت العلاقة والحب بينهما فتقدم بطلب إلى رؤسائه يعلمهم فيها بعلاقته مع أنجا (كان رؤساؤه بنفس الوقت يدرسون إمكانية تزويجه من آنسة أرجنتينية في العشرين من عمرها لتساعده في عمله وتؤنسه في أعمال التجسس بالإضافة إلى إمكانية حصوله على الجنسية الأرجنتينية التي كانت ستتيح له سهولة التحرك داخل أية دولة غربية يزرع بها) وبدأ مسؤولو الكي.جي.بي دراسة حالة أنجا وأهلها وأصدقائها وتبين أنها شيوعية مخلصة مثل لوديك تماماً، وهي على استعداد للقيام بأية مهمة تكلفها بها الكي.جي.بي بألمانيا الغربية أو غيرها. وفي هذه الأثناء بدأ لوديك يتعلم أصول

المهنة فكان يتدرب على كتابة التقارير عن نشاطاته خلال الأسبوع، وهي تقارير تتعلق بالأشخاص الذين قابلهم، والصفات التي لفتت نظره في كل من هؤلاء الأشخاص والتي تجعله جديراً باهتمام المخابرات السوفياتية. فقد تعلم لوديك كيف يستخدم أماكن محددة لإخفاء رسائله التي يوجهها للكي.جي.بي وكيف يخفي دفتر فك الرموز، وتعلم كيف يقوم بإرسال الرسائل بجهاز الإرسال الخاص. أما أنجا فقد أرسلتها المخابرات السوفياتية إلى ألمانيا الغربية لاختبارها بعد أن كلفتها بأداء بعض مهمات التجسس فاجتازت الاختبار ونجحت به بل تفوقت. وعند ذلك طلبوا منها السفر إلى موسكو وهناك أخضعوها لامتحان أيديولوجي ونفسي فاجتازته بنجاح. وفور عودتها إلى ألمانيا انضمت إلى لوديك في توظيف جهودهما لاستيعاب كل المعلومات المتعلقة بهوية الأشخاص المستعارة التي سيتخذونها مستقبلاً.

وقد طلب الكي.جي.بي من لوديك انتحال شخصية عامل ألماني عثر على أوراقه في الأرشيف السوفياتي يدعى رودلف هرمان كان قد توفي في الاتحاد السوفياتي في عام 1942. وكانت المخابرات السوفياتية قد تأكدت من وفاته ووفاة كل أقاربه فاحتفظت بأوراقه لاستغلالها بهدف إحياء شخصيته مزورة تخدم أغراضها.

● كان رودلف هرمان الأصلي قد ولد في 22 نيسان (أبريل) لعام 1925 في منطقة السوديت من أبوين ألمانيين. فوالده كان صانع زجاج وكان مصاباً بالسل فأرسل الابن رودلف هرمان إلى جدته حيث التحق بالمدرسة التشكيلية. وهو ما يفسر اتقان لوديك للغة التشكيلية وبعد بداية الحرب عمل رودلف كعامل في شركة تقوم بإصلاح العربات العسكرية. ثم عمل كسائق. واستمر الفرع المختص في

المخابرات السوفياتية بتأليف مقاطع وهمية من حياة رودلف ومنها أنه بتاريخ 13 شباط (فبراير) 1945 صدر أمر إليه بالذهاب إلى برلين لتسليم مخططات بناء، وقد نجا رودلف بأعجوبة من عملية قصف برلين، إلا أن سيارته أصيبت على بعد 60 كيلو متراً من جنوب برلين ونقل إلى المستشفى ثم اضطر إلى الفرار بسبب تقدم القوات الروسية. فقد رودلف والدته وجدته خلال الحرب وحاول العثور على بقية أهله دون جدوى فاستقر في مدينة «درسر» حيث عمل في مصنع معلبات، ثم عمل بالمكتبة العامة في مدينة «ماغديبورغ» منذ كانون الأول (ديسمبر) 1951 حتى نهاية عام 1957. ثم ترك هذه الوظيفة ليكون بجوار صديقته التي أصبحت تعمل سكرتيرة في معمل أدوية بمدينة «بيدرمن». . .

● تقرر أن يبدأ لوديك البحث عن وظيفة جديدة منذ شهر كانون الثاني (يناير) 1957.

● إن قصة رودلف كان لها ميزات عديدة. فهي قصة إنسان عادي غير جدير بلفت الأنظار أو إثارة الشكوك. وكان بنفس الوقت يشكل نموذجاً مثالياً للاجيء عادي جداً من لاجئي الكتلة الشرقية. وفي إحدى أمسيات شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1957 أبلغ بوفاة والده فذهب ليحضر الجنازة وبعد إتمام الدفن أعلنت والدته البالغة من العمر ستون عاماً أنها سوف تعمل من أجل الحزب لكي تنسى حزنها على زوجها. إلى هنا توقفت حياة رودلف (لوديك) المزورة ليبدأ عمله المخطط له. . .

انتهاء عملية تزوير الجاسوس واستعداده للزفاف

بعد أن تمت عملية تزوير هوية لوديك باتقان حيث أصبح (رودلف هرمان) اهتمت المخابرات السوفياتية بتزوير هوية صديقته أو خطيبته أنجا فأعطوها هوية امرأة وسموها **أنجالور مويرك** من مواليد 1931 في مدينة ستيشن والتي قتلت مع أفراد أسرتها في عمليات القصف التي وقعت على ألمانيا عام 1944 وكانت الكي.جي.بي قد عثرت على شهادة ولادتها الحقيقية في بلدية برلين الغربية كما عثروا لها على وظيفة سكرتيرة رسومات بمدينة فرانكفورت. أما خطيبها لوديك فقد تعمّدت المخابرات السوفياتية على تركه يسعى إلى إيجاد وظيفة بمجهوده الخاص بحيث تكون هذه الوظيفة في إحدى المؤسسات الخاصة التي لا تقوم الدولة بالتدخل في اختيار موظفيها. وقد لاقى لوديك صعوبات كثيرة في إيجاد عمل له حسب طلبهم بسبب عدم اتقانه اللهجة الألمانية. وأخيراً عثر على عمل لدى صاحب محل قطع غيار سيارات نازي متعصب وعدو لدود للشيوعية كان قد عمل مأمور ضرائب في عهد هتلر. وكان يعتقد أن الخطأ الوحيد الذي ارتكبه هتلر هو خسارته للحرب. أما ابن هذا الشخص فكان قد حاول تفجير مقر القيادة السوفياتية في برلين ولذلك كان في السجن. وقد لقن الأب صاحب العمل لوديك كيفية الاضطلاع بعملية الحسابات وكيفية التهرب من الضرائب كما ردد على مسامعه كل التقاليد والكلمات والأناشيد النازية وجميع الحجج التي اخترعها ليبرهن على مخاطر الشيوعية الملحدة.

الزواج

في أواخر عام 1957 اتفق الجاسوسان (عفواً) الخطيبان على إتمام الزواج فتوجها إلى دار البلدية لتوثيق الزواج. وبعد حوالي السنة

من الزواج رزقا بطفل سمياه «بيتر». وفي تاريخ 26 تشرين الثاني (نوفمبر) غادر لوديك برلين الغربية ليبحث عن عمل في منطقة شتوتجارت، وبينما كان يتنزه في مدينة «فريبور» اقترب منه رجل أنيق في الخامسة والستين من عمره وسأله بأدب جم مستفسراً عن أحد المطاعم، ثم طلب منه أن يرشده إلى أحد الفنادق، فأخذه لوديك إلى نفس الفندق الذي يقيم هو به. وبينما كانا يتجولان بالمدينة في اليوم التالي روى الرجل الذي قدم نفسه باسم سيفيلدر قصة حياته للوديك وكيف أنه كوّن ثروة من تجارة الماشية والنسيج بالأرجنتين خلال الثلاثينات. وعندما طلب هتلر من اللاجئين الألمان العودة إلى وطنهم مصطحبين نقودهم عاد سيفيلدر وقام بتأسيس مصنع للنسيج في ألمانيا وطنه. وبالرغم من كل ثرائه كان تعيساً لأن الله لم يهبه أطفالاً وعرض سيفيلدر على لوديك أن يعمل بمصنعه تمهيداً للقيام بإدارته فيما بعد. كما عرض عليه أن يقيم هو وأسرته بالطابق الثالث من منزله الخاص.

● سافر لوديك إلى ألمانيا الشرقية واتصل بالمخابرات السوفياتية حيث عرض عليها طلب سيفيلدر فوافقوا له فوراً بل وبُلّغ بترقيته بسبب ولائه ونجاحه في عمله.

● أحسنت عائلة سيفيلدر معاملة لوديك وزوجته أنجا وعاملتهم كأبنائها ولقنتهم عادات وتقاليد هذه الطبقة من صفوة رجال الاقتصاد الغربي. وبعد فترة وحسب وعده أعلن سيفيلدر أنه قرر تكليف لوديك بإدارة مصنعه وكان ذلك يعني أن لوديك سيظل في مدينة «آيشنهاوزن» ولن يتمكن للعمل لصالح الكي.جي.بي في مكان آخر، لذلك قرر أن يعتذر عن قبول هذا المنصب على اعتبار أنه غير مؤهل للأعباء المطلوبة منه. وقبل سيفيلدر اعتذاره المقنع ووعد بمساعدته في الحصول على عمل آخر وقدم له مساعدة مالية كتعويض عن المدة التي

قضاها في مصنعه مبلغ عشرة آلاف مارك بالإضافة إلى مبلغ خمسة آلاف مارك منحته إياها المخابرات السوفياتية فتمكن من شراء مؤسسة تجارية كانت تقوم ببيع الأدوات المدرسية للمدارس الحكومية. وبدأ يتعلم كيفية تسويق بضائعه، واشترى لذلك سيارة فولكس فاكن صالون. وبعد مدة وصلته رسالة (طلب مراجعة) لدائرة أجهزة الأمن الألمانية الغربية حيث أن قانون البلاد يقضي باستجواب القادمين من الكتلة الشرقية عن ماضيهم. توجه لوديك وزوجته أنجا إلى مقر المخابرات الألمانية الغربية (الفرع 13) وهناك شرح لهم التفاصيل التي لقنته إياها الكي.جي.بي عن ماضيهما المزعوم. ولدى سؤالهم عن سبب هروبهما من ألمانيا الشرقية أجاب لوديك بتعداد مخاطر الشيوعية ومدى الاضطهاد والاستغلال الذي يتعرض له العمال والفلاحين. كما أكّد لضباط المخابرات الألمانية الغربية أن البيروقراطيين الشيوعيين يستنزفون دماء الشعب وأنهم هم الإمبرياليون الحقيقيون وأنهم يلبون أوامر قادتهم الدكتاتوريين، ولا يتورعون عن قتل أي شخص في سبيل ذلك. أما النازيون فكانوا على الأقل لا يقتلون سوى فئات معينة من الأشخاص. ولما سئل من هم أجاب: اليهود.

أظهرت المخابرات الألمانية تصديقها لروايته وتركته يعود إلى منزله وعمله. ولكن بعد مدة استدعي للمرة الثانية وعرضوا عليه العمل كعميل لهم في تشيكوسلوفاكيا وكان عملاً في غاية الخطورة سيضطره للافتراق عن زوجته وولده في كثير من الأحيان. وأوصاه ضابط المخابرات الألماني الغربي بأن لا يفاتح زوجته بالأمر وترك له مهلة 15 يوم للرد على طلبهم. احتار لوديك لأنه وقع بين نارين فمن ناحية لا يستطيع رفض هذا العمل لأنه سيتعرض لشكوك واضطهاد

المخابرات الألمانية الغربية، وكان من جهة ثانية يستحيل عليه إعلام الكي.جي.بي لأنه يتوقع منهم عدم تفهم هذه القضية أو اقتناعهم بها. وبدا الموقف متأزماً تماماً. وفجأة شاءت الصدفة أن يقابل لوديك ضابط المخابرات الذي قدم له طلب مع اثنتين من الغواني في أحد المقاهي الراقية، فتقدم منه وحياه باحترام ثم انسحب ودفع عنه الحساب مما دعا ضابط المخابرات إلى الوقوع بالحرج وكانت آخر مرة يراه فيها. وخلال هذه المدة كانت المخابرات السوفياتية تطالب لوديك بإعداد تحاليل عن الموقف السياسي ومدى الفرص المتاحة للمرشحين التقدميين خلال الانتخابات المقبلة ودراسة موقف اللاجئين تجاه الاشتراكية. وبعد مدة قام لوديك ببيع مشروعه التجاري الذي كان قد اشتراه سابقاً وافتتح محلاً لبيع آلات التصوير في «هلبرون» في شمال شتوتجارت، فازدهرت تجارته الجديدة مع متابعته عمله التجسسي مع الكي.جي.بي فحصل بتاريخ 31 كانون الأول (ديسمبر) 1960 على ترقية جديدة في سلك المخابرات السوفياتية الوظيفي. وفي شهر شباط (فبراير) من العام 1961 صدرت إليه أوامر عاجلة بالقيام برحلة إلى كندا والولايات المتحدة كسائح لدراسة العيش والعمل في أي من الدولتين مع تحويل مبلغ عشرون ألف دولار له للتصرف على هذا الأساس.

استمتع لوديك برحلته إلى كندا والولايات المتحدة على حساب الكي.جي.بي، وأحب كل ما رآه في الولايات المتحدة وخصوصاً الموقف الذي لقيه من الأميركيين وأعرب لهم لدى عودته عن سروره للعيش في أي من الدولتين، فصدرت إليه الأوامر للشروع في إجراءات الهجرة إلى كندا ودراسة اللغة الإنكليزية، وكذلك تصفية وبيع محله الأخير. ثم استدعيت زوجته إلى موسكو. وفي قيادة

المخابرات السوفياتية سلمت دفتراً جديداً لفك الرموز وخطة معقدة للإرسال على جهاز راديو متطور ومبلغ 5000 دولار جديدة وقائمة من الإرشادات منها، الإقامة في مدينة تورنتو لدى وصولهم إلى كندا وشراء محل لبيع آلات التصوير، ليصبحا مواطنين كنديين صالحين مثلما كانا مواطنين صالحين في ألمانيا الغربية.

نفذ لوديك الأوامر حرفياً فقام بشراء منزل في مدينة تورنتو بمبلغ 7500 دولار، ثم اشترى محلاً لبيع آلات التصوير بعد جهود ضخمة، ولكنه لم ينجح في مهنة بيع آلات التصوير، فحوّل المحل بعد طلائه إلى حانة صغيرة لبيع الوجبات الخفيفة والمشروبات يقوم على خدمته مع زوجته أنجا. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) 1962 أنجبت زوجته أنجا طفلها الثاني فأسمياه مايكل واضطرت للتوقف عن العمل. وبالتالي اضطر لوديك إلى بيع الحانة بمبلغ 10000 دولار، ثم صدرت الأوامر إليه للسفر إلى موسكو. وهناك هنأه الجميع على نجاحه فيما حققه وطلبوا منه أثناء فترة الضيافة كتابة كل ما يتذكره منذ مغادرته لموسكو في زيارته الأخيرة. ثم قام بعض خبراء الكي.جي.بي بمناقشته عن أفضل الأماكن لإخفاء دفتر فك الرموز في منزله ولإخفاء خطة جهاز الإرسال وكذلك الأوراق المخصصة للكتابة بالحبر السري. ثم أعطوه عنوان صندوق البريد المخصص لإرسال الرسائل العاجلة من مقر إقامته الجديد في مدينة «أوتاوا». ثم سألوه عن السياسة الكندية وعن مدى قوة التيار الانفصالي بمقاطعة كيبِك وعن أهم الخلافات القائمة بين كندا والولايات المتحدة، وعن مشروع إقامة علاقات بين كندا والصين الشعبية.

مهمة تأسيس شبكة جاسوسية في كندا

أعلمه العقيد كيروف من المخابرات السوفياتية أثناء مناقشته في موسكو بأن مهمته الأساسية هي الاستعداد لتولي مسؤولية شبكة التجسس السوفياتية في كندا تحسباً لقيام حرب أو لانقطاع العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي وكندا. وسأله عن الطريقة التي يجدها مناسبة كحجة لإقامته فأجاب لوديك بأن نيته تأسيس شركة لإنتاج الأفلام الدعائية والتجارية لحساب شركة «سي.بي.سي» وهذا العمل بدوره سيكون مبرراً كافياً لإقامته وتنقلاته وسفرياته العديدة.

● كذلك، طلب منه العقيد كيروف البحث عن أشخاص تقدميين خاصة في الأوساط السياسية والصحفية وأن يرسل له تقريراً عن كل شخص مهم يقابله سواء كان تقدمياً أم لا. وأضاف العقيد كيروف أن أهم التفاصيل المتعلقة بهؤلاء الأشخاص والتي يتوجب عليه إخبارهم بها هي:

1 ـ اسم الشخص ومركزه وعمره التقريبي.

2 ـ تاريخ وظروف المقابلة.

3 ـ تقدير لوديك لوجهات نظر الشخص السياسية والاجتماعية.

4 ـ أسباب ميل هذا الشخص للاتحاد السوفياتي.

5 ـ أسباب كراهيته للولايات المتحدة أو غيرها من الدول الغربية.

6 ـ تقييمه لطباعه وشخصيته مع الأخذ بعين الاعتبار عيوب هذا الشخص أو هواياته وميوله.

7 ـ مدى احتياجه للنقود.

8 ـ هل يمارس الشذوذ الجنسي أو يحب النساء أو هو من رواد الحانات الليلية حتى تعرف المخابرات السوفياتية ما هي «نقطة الضعف» التي يمكن لها أن تنفذ إليه من خلالها.

● عاد لوديك إلى تورنتو ليبدأ العمل كفني للصوت في شركة «سي.بي.سي» ثم كمخرج للأفلام بإحدى الشركات التي تعمل بحقل الدعاية حتى كون له اسماً مشهوراً مع استمراره في عمليات التجسس. وبدأت المخابرات السوفياتية تحثه على مضاعفة جهوده في عمليات التجسس. فمنذ بداية عام 1966 تلقى رسالة من قيادة المخابرات السوفياتية تحتوي على أمر له بالتردد على ملاهي تورنتو مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع لسماع ما يتحدث به الناس من أقوال، فأجابهم فوراً بأن تركيز جهوده على أعماله مع شركات الإعلان وإنتاج الأفلام التي ستتيح له إمكانية مقابلة أشخاص يمثلون أهمية بالنسبة للكي.جي.بي. وقد أكد لهم أنه لم يجد مثل هؤلاء الأشخاص الذين يسترعون الانتباه في الملاهي الليلية التي طلبوا منه التردد عليها.

● أرسل لوديك هذه الرسالة الجوابية نظراً لأهميتها مع زوجته أنجا إلى موسكو. فعادت وهي تحمل معها نقوداً عن الأشهر السابقة ودفتراً جديداً لفك الرموز وخطة إرسال مع راديو جديد بدون أن تحمل معها رداً مباشراً على رسالة زوجها مما دفعه إلى احتقار الكي.جي.بي على تعنته.

حصول الجاسوس لوديك وزوجته على الجنسية الكندية

بعد استيفائه شروط الحصول على الجنسية الكندية لجهة المدة الكافية للإقامة في كندا والشروط المتمّمة، حصل لوديك وزوجته على الجنسية الكندية. وبعد إبلاغه الكي.جي.بي بهذه البشارة الطيبة

بعدة أيام تلقى منهم رسالة بالشيفرة يطالبونه بعمل الإجراءات اللازمة للحصول على تأشيرة دخول للولايات المتحدة تمهيداً للهجرة إليها. ذُهل لوديك لأنه كان يعتقد بأن الكي.جي.بي تخطط لإقامته الدائمة في كندا بعد أن نجح في الاستقرار فيها، وفي تحقيق مركز اجتماعي مرموق وفي إقامة علاقات صداقة مع العديد من الكنديين وفي التقرب من بعض الشخصيات الكندية. وكان يعتقد أيضاً أنه من الحماقة التخلي عن كل ما أنجزه في كندا ليبدأ من الصفر في الولايات المتحدة. ولكنه فهم متأخراً أن كندا ما كانت تمثل سوى مرحلة قبل الولايات المتحدة التي خصصتها المخابرات السوفياتية لإقامته النهائية، لأن كندا هي أسهل بلد يمكن الانتقال منه للولايات المتحدة بصورة قانونية وشرعية. قبل لوديك طلب الكي.جي.بي على مضض لأنه أصبح بوضع لا يسمح له برفض أي طلب لهم. فأخذ يدرس أوضاع الهجرة من كندا إلى الولايات المتحدة. وأدرك أن فرصته في القبول تكون أقوى فيما لو حصل على إحدى التخصصات النادرة مثل هندسة الإلكترونيك، ولكي يتخصص في هذا المجال انضم إلى المؤسسة الكندية لمهندسي التلفزيون والإخراج السينمائي للحصول على الاختصاص المطلوب، وبنفس الوقت كان يتابع تصفية أعماله التجارية حسب طلب الكي.جي.بي. ومن شدة انهماكه في مسألة التصفية تمهيداً للهجرة إلى الولايات المتحدة لم يهتم بإحدى المهمات التي كلفوه بها وهو التأكد من عنوان البروفيسور هيوج هامبلتون الأستاذ بجامعة لافال بمقاطعة كيبك ولكنه أرسل زوجته أنجا التي تأكدت بنفسها من عنوان هذا العميل وهنا أعلمت الكي.جي.بي لوديك أن هامبلتون أحد عملائهم الموثوقين. وكلفوه بالذهاب إليه وتعريفه بنفسه وتسليمه بعض التعليمات الصادرة إليه من المخابرات

السوفياتية. وقد ذهب لوديك للقاء البروفيسور في مقره بالجامعة. وبعد تقديم نفسه إليه لاحظ أنه مثال الشخص المتواضع المثقف وأنه يمثل شخصية أيديولوجية مرموقة، وأوضح له لوديك أن الكي.جي.بي تطالبه بإعداد تحليل اقتصادي عن الأوضاع الكندية وتحاليل تتعلق باحتمال قيام حركة انفصالية بكندا وبعلاقات كندا بالصين. ولكي لا يلفت الأنظار إليه اصطحب لوديك ابنه بيتر حيث تركه أمام أحد المحلات التي تطلق عليها اسم «مونت رويال» وكانت درجة الحرارة أقل من الصفر لأنهم في شهر كانون الأول (ديسمبر) وأيامه الباردة. سلم البروفيسور إلى لوديك تحليلاً طويلاً قرأه وأعجب به ثم زوده لوديك بتعليمات الكي.جي.بي الجديدة وهي تنص على إقامة علاقات شخصية بالبروفيسور بول لن دوماكجيل الذي تعتقد المخابرات السوفياتية بأنه على اتصال مع ماوتسي تونج في حينه، وطلب منه أن يسعى في الحصول على وظيفة في السلك الدبلوماسي الكندي. وبعدما انفصلا بعد لقائهما تصرف لوديك كما لو كان يرشد أحد الغرباء ثم أخذ يتنقل من محل لآخر محاولاً التهرب من أي شخص يكون قد تتبع آثاره حتى قارب أن يصل إلى منزله فتذكر فجأة «ابنه» الذي نسيه تماماً لانشغاله بأعماله الجاسوسية فاندفع بسيارته كالمجنون نحو المكان الذي تركه أمامه ليجده وقد أوشك أن يتجمد من البرد بعد أن قضى فترة أربع ساعات وهو ينتظر أباه الذي نسيه لانهماكه في عمله بالجاسوسية. إنها المخابرات...

نجح لوديك في انتقاله إلى الولايات المتحدة ـ حسب الخطة التي وضعتها له المخابرات الروسية مع زوجته وولديه ـ نجاحاً باهراً، وحصل على وظيفة جيدة في حقل هندسة الإلكترونيات الذي اختص به في كندا استعداداً لهذه المهمة. كما سعى لإيجاد وظيفة لابنه بيتر

الذي أنهى دراسته الثانوية في كندا وأصبح شاباً يافعاً وذلك في مؤسسة أرلنفتون للنظم الآلية في واشنطن.

في نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر) 1976 اتصل به مقر الكي.جي.بي وطلبوا منه التوجه إلى موسكو عن طريق فيينا. وأعلموه أن عليه حين وصوله إلى الموعد في فيينا بأن يرسم علامة (×) بالطبشور على الباب الداخلي لإحدى العمارات قبل ذهابه إلى موعد اللقاء مع ضابط الكي.جي.بي بست ساعات وكان الموعد المتفق عليه أمام أحد محلات بيع الملابس الداخلية النسائية.

● غادر لوديك واشنطن بعد أن تفاهم مع زوجته وابنه بيتر إلى فيينا، وانتظر في مكان الموعد ساعات طويلة بعد أن رسم علامة (×) كما طلب منه، ولم يحضر ضابط المخابرات السوفياتية. وتكرر الأمر أربع مرات على مدى أربعة أيام متتالية مما عرضه لتهديدات بعض الشبان من أهل تلك المنطقة الذين ظنوا أنه يقف في ذلك المكان وهذه الساعات الطويلة انتظاراً لإحداهن وهددوه بالضرب، وقبل أن ينفذوا تهديدهم ظهر ضابط المخابرات السوفياتية بسيارته فأسرع لوديك وأنقذ نفسه.

● خلال اللقاء في موسكو مع العقيد كيروف أخبره أن بعض رسائله قد اختفت وأن أحمر الشفاه الذي أرسله كطرد بريدي إلى عنوان لهم في موسكو وكان يحتوي على رسالة سرية قد فتح. وثار لوديك وقال أنه ليس بإمكانه تقديم أي عذر منطقي لاختفاء الرسائل لأنه وضعها في الصناديق المتفق عليها. كما أنه لا يعرف سبباً للعبث الذي تعرض له أحمر الشفاه سوى اعتقاده بأن فرع مراقبة البريد من قبل المخابرات الأميركية قام بالكشف عليه لدى إيداعه بريد واشنطن،

بمعنى أن الحيلة لم تنطلِ على المخابرات الأميركية، ثم ذكر لوديك شكواه شفهياً إلى العقيد كيروف وهي تتلخص بما يلي:

1 ـ لماذا صممت المخابرات السوفياتية على أن يتغلغل في صفوف معهد «الهيودسن».

2 ـ لماذا طلبوا منه بإلحاح التردد على الحانات (رغم اعتذاره).

3 ـ لماذا يصرّون على أن ينجح في الولايات المتحدة كما نجح في كندا؟ وهل سيطول به المقام في الولايات المتحدة (هذه الفقرة إشارة لعدم رضاه عن عمله في الولايات المتحدة).

4 ـ إهماله تلقين ابنه بيتر الأيديولوجية الماركسية.

وأضاف بعد ذلك بأنه مصرّ على عدم العودة إلى الولايات المتحدة، وأنه سيصفي أموره فيها بالمراسلة من كندا. فتركه العقيد كيروف ليستريح 24 ساعة. ثم أرسلوا إليه أحد الضباط الذي تولى مهمة تليينه وأقنعه بالعدول عن رأيه فوافق لوديك على العودة مرة أخرى للعمل في الولايات المتحدة، وقرروا مكافأته مادياً تشجيعاً له وإعطاءه جهاز راديو جديد يقوم بطريقة آلية بتسجيل الرسائل المضمونة والمرسلة عبر الأقمار الصناعية. وكان هذا الجهاز صغيراً إلى أقصى حد وسرياً للغاية، ولا يسلّم إلاّ لبعض العملاء النادرين. ووافقوا على تلقين ابنه بيتر الأيديولوجية الشيوعية ووعدوه بمهمات جديدة تناسب اهتمامه. وخلال رحلة العودة من موسكو شعروا أن نفسيته قد تغيرت تجاههم رغم استمرار ولائه للقضية الاشتراكية وتفانيه للحزب. وكثيراً ما يكون الجاسوس صادق الحس والشعور في مراحل تتسم باليأس أثناء عمله ويكون هذا الشعور بمثابة إنذار له بأن يد عنصر المخابرات ستوضع على كتفه قريباً.

إلقاء القبض عليه من قبل المخابرات الأميركية

عاد لوديك إلى الولايات المتحدة ولم يقم بأي عمل لصالح الكي.جي.بي رغم تزويده أخيراً بدفتر جديد لفك الرموز. وفي صباح الثاني من شهر أيار (مايو) 1976 اتصل به أحد الأشخاص طالباً التقاط صور لحمام ساونا أقامه في منزله وذلك استناداً لهوايته في التصوير التي أعلن عنها في جميع أوساط بائعي آلات التصوير. وعندما وصل إلى موعده المحدد اكتشف أن أفراداً من المخابرات الأميركية كانوا في انتظاره لإلقاء القبض عليه. وفي مقر المخابرات أعلموه أنهم على علم بنشاطه هو وزوجته وخيّروه ما بين التعاون معهم ضد الكي.جي.بي أو تقديمه للمحاكمة بتهمة التجسس باعتباره لا يتمتع بحصانة دبلوماسية. ووعدوه بأنه إذا تعاون معهم بشكل صحيح فإنه سيمنح هو وأفراد أسرته اللجوء السياسي وهويات جديدة تؤمن سلامتهم مدى الحياة. وقد منح لوديك فرصة لدراسة هذا العرض مع عائلته لغاية الساعة الثالثة من بعد ظهر نفس اليوم ليخطرهم برده.

● اكتشف لوديك أن المخابرات الأميركية تراقبه منذ فترة طويلة وقد صبروا عليه كثيراً حتى حصلوا على الدليل من زوجته أنجا.

● أخذ لوديك يفكر ويضرب أخماساً بأسداس، وأخيراً وافق على التعاون مع المخابرات الأميركية بشرطين:

الأول: أن لا يؤمر بالقتل تحت أي ظرف.

الثاني: أن لا يطلبوا منه التخلي عن معتقداته الشيوعية.

● وافق مسؤولو المخابرات الأميركية على شروطه وبدأوا التحقيق معه فروى لهم بالتفصيل كل مراحل حياته منذ طفولته.

واستمر يروي لهم حتى الساعة الثانية صباحاً. فاكتشف أثناء إفادته ومن كلام ضباط التحقيق في المخابرات الأميركية أنهم كانوا على علم بأماكن كل صناديق البريد التي كان يستخدمها وبكل الرحلات التي كان يقوم بها هو أو زوجته إلى «موسكو». وقد أعلمهم أنه من المقرر أن تسافر زوجته أنجا في الخامس من شهر أيار (مايو) إلى مدينة مكسيكو حيث ستقابل مراسلاً للكي.جي.بي سيقوم بتسليمها خطة جديدة لجهاز الإرسال ومن المستحسن عدم تخلفها عن الموعد خوفاً من إثارة الشكوك لدى المخابرات السوفياتية. ولكن ضباط المخابرات الأميركية أعلموه خشيتهم أيضاً إذا ذهبت زوجته إلى هذا اللقاء أن تقوم بإخطار الكي.جي.بي بما حدث. كذلك أدرك لوديك أن المخابرات الأميركية بفضل اكتشافها أماكن صناديق البريد المستخدمة كانت قد تعرفت على عملاء الكي.جي.بي الذين كانوا يستخدمون هذه الصناديق. غير أن المخابرات الأميركية فضلت عدم اعتقالهم من أجل تسريب معلومات خاطئة للمخابرات السوفياتية.

● سأل لوديك المخابرات الأميركية: هل اكتشفتموني بسبب خطأ ارتكبته؟ وكانوا صريحين في إجابتهم له، مؤكدين على أنه كان ممتازاً في عمله وأن سبب اكتشافه يعود إلى أخطاء ارتكبتها المخابرات السوفياتية نفسها وخطأ آخر من زوجته.

● تقرر إعلام زوجته بالموافقة على ذهابها إلى موعد مكسيكو وأوهموها أنها ستكون تحت مراقبة المخابرات الأميركية خلال تحركاتها في هذه الرحلة.

● أثناء سفرها للقاء المخابرات السوفياتية في مكسيكو كانت تعرف أن المخابرات الأميركية لن تراقبها كما ادعوا لها، وأنها لم تكلف نفسها عناء مراقبتها.

● لدى عودتها من مكسيكو أبلغتهم بأن المقابلة تمت كما كان متوقعاً لها. غير أن الظرف الذي تم تسليمه لها كان فارغاً وأنكرت أنها أعلمت الكي.جي.بي أنهم وقعوا بين أيدي المخابرات الأميركية. ولكن ضباط المخابرات الأميركية لم يقتنعوا بروايتها لمعرفتهم بدقة مواعيد وعمل المخابرات السوفياتية فأصروا عليها لتقديم حقيقة ما جرى معها. وأمام إلحاحهم اعترفت أنجا بأنها تخلصت من خطة الراديو بسبب إحساسها بالذنب ولكن لم تعترف بموضوع المخابرات الأميركية واعتقالها لوديك.

● اعترفت أنجا بأن المخابرات السوفياتية أعلمتها بأن تاريخ 14 أيار (مايو) هو موعد لوديك معهم لتلقي رسالة عمل منهم. وفي نفس اليوم توجه لوديك مع دورية من المخابرات الأميركية إلى حيث تلقى بالفعل الرسالة تحت إشرافهم. ثم طلبوا منه استدعاء ولده بيتر. ولدى وصوله أبلغوه آخر التطورات. ولاحظ لوديك أن ولده كان أقلهم تأثيراً باكتشاف أمرهم بسبب عدم تأثره بالأيديولوجية الشيوعية. وأخيراً تركهم يعودون إلى منزلهم، وأعلموهم بأن المخابرات الأميركية ستضعهم تحت المراقبة الدائمة وأن عليهم أن يحرصوا على نفس المسلك الذي يتبعوه مع الكي.جي.بي. وفي اليوم الأول لعودتهم إلى منزلهم طلبت المخابرات السوفياتية من لوديك تنظيم رحلة استكشاف إلى السلفادور، كما استفسروا منه عن حالة الزوجة أنجا خلال رحلتها السنوية التي تقضيها في أوروبا. أجابهم لوديك على هذه الرسالة أن ولده بيتر سيكون مشغولاً خلال الصيف بدراسته وأن زوجته أنجا مريضة ولن تستطيع السفر إلى أوروبا هذه السنة. وبدأ لوديك يضع في صناديق بريد الكي.جي.بي تقارير أعدها بإشراف المخابرات الأميركية. ومع ذلك فوجىء بمنحه ترقية جديدة

من المخابرات السوفياتية وتهنئته له ولأسرته على أعمالهم الجليلة للاتحاد السوفياتي. ثم طلبوا منه مقابلة أحد ضباطهم في مكسيكو في الأول من آذار (مارس) 1978. وذهب لوديك ولكن هذه المرة تحت رقابة مشددة من المخابرات الأميركية.

● أبلغه ضابط الكي.جي.بي عن اهتمامهم بولده بيتر وأنهم طلبوا منه تعليمه جميع فنون التجسس بالإضافة إلى تلقينه الأيديولوجية الماركسية، وأعطاه مبلغ خمسة عشر ألف دولار عن أتعابه السابقة. ثم سأله عن إمكانية توجه ولده بيتر إلى موسكو أو فيينا خلال الصيف لعقد دورة جاسوسية مكثفة له فأجاب لوديك بأن بيتر على وشك الالتحاق بوظيفة هامة بمؤسسة اتصالات ذات نظم آلية بـ «أرلنجتون» الشيء الذي سيتيح له إمكانية التقرب من أعضاء مجلس الكونغرس الأميركي، وفي نفس الوقت متابعة تعلم اتقان النظم الآلية، فاقتنع الضابط بوجهة نظر لوديك، وفي نهاية المقابلة استفسر منه الضابط السوفياتي عن حالة أنجا الصحية. وانتهت المقابلة وعاد لوديك تحت إشراف المخابرات الأميركية إلى واشنطن. حيث عادت طلبات الكي.جي.بي إلى لوديك بإرسال تقارير أسبوعية وإنجاز بعض المهمات الأخرى.

بداية النهاية

بدأت المخابرات الأميركية في البحث عن مزرعة بالقرب من «وودستوك» حيث ستقيم عائلة لوديك مستقبلاً. وبدأوا بتكوين هوية مستعارة لهم لحمايتهم واحتوائهم. وفي أثناء ذلك طلب منه الكي.جي.بي إيجاد 5 أو 6 صناديق بريد في منطقة ـ دالجرين ـ في فرجينيا. وتبين أن هناك مركز أبحاث للأسلحة البحرية حيث يشرف

بعض الاخصائيين الأميركيين على إقامة نظم لتوجيه الصواريخ وأسلحة الغواصات من طراز «ترايدنت»، بالإضافة إلى أنظمة المراقبة عن طريق الأقمار الصناعية ومعدات عسكرية إلكترونية. وفي نفس الوقت عكف الخبراء على تصنيع أسلحة بنفس خطورة القنبلة الذرية مما استدعى المخابرات السوفياتية لوضع جاسوس لها في تلك المنطقة. لذلك طلبت المخابرات الأميركية من لوديك بذل كل جهد ممكن من أجل اكتشاف هذا الجاسوس، ومهما يتكلف ذلك من جهد ومال (اتخذ هذا القرار بموافقة البيت الأبيض بالذات مما يدل على أن الرئيس الأميركي يطّلع شخصياً على أعمال المخابرات الأميركية. وقد أقر مدير المخابرات الأميركية خطة تم وضعها استخدم فيها أكثر من 100 موظف ومعدات بلغت قيمتها ملايين الدولارات (عربات جيب وعربات شحن ومولدات كهربائية وكابلات وأكياس رمل وكاميرات تصوير) وبالرغم من ذلك لم يظهر الجاسوس السوفياتي لوضع أية رسالة للكي.جي.بي في الصندوق المقرر بالغابة المجاورة لمنطقة (دالجرين) وقد أرسلت المخابرات السوفياتية رسالة لاسلكية إلى لوديك تفسر فيها صعوبة اقتراب جاسوسهم من المنطقة المحددة لصندوق الخطابات بسبب استفزازات «إمبريالية». وسئل لوديك عوضاً عن ذلك متى يمكنه الحضور إلى «فيينا» أو مكسيكو لتسليم المعلومات المتوفرة لديه والمتعلقة بـ (دالجرين)، فأفاده ضابط الاتصال المرافق له من المخابرات الأميركية بأن يرد عليهم مؤكداً إمكانية توجهه إلى مكسيكو أو فيينا بعد منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وذلك لكسب مدة شهر كامل لصالح المخابرات الأميركية يمكنهم خلاله إنجاز كل الإجراءات المطلوبة استعداداً للموقف.

سارت الأمور سيرها الطبيعي في خداع المخابرات السوفياتية.

وفي الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) قابل لوديك ضابط المخابرات السوفياتية في مكسيكو وسلمه تقريراً من ابنه «بيتر»، ثم أربعة تقارير سياسية أخرى منه هو شخصياً، ثم رسائل لأسرته وأسرة زوجته. ثم أعطاه وصفاً تفصيلياً عن خمسة صناديق بريد تقع في محيط «دالجرين». في آخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وصلته رسالة من قيادة المخابرات السوفياتية تعلمه بوصول رسائل مكسيكو منه ومن ولده وفي حينه أعلن الاتحاد السوفياتي عن وجود أكثر من مائة موظف في مؤسسة وهمية على الساحل الغربي لدالجرين. وقيل أن هذه المؤسسة مختصة بنشر الموجات الصغرى ليلاً ونهاراً مهما كانت الأحوال الجوية للرصد. وقد طالبت المخابرات السوفياتية لوديك بإرسال المزيد من هذه المعلومات. كما أعلموه موافقتهم على التحاق ولده بيتر بإحدى المؤسسات التي توصله لمعرفة بعض أعضاء الكونغرس الأميركي. وقد ظل أفراد المخابرات الأميركية في أماكنهم بالقرب من دالجرين حتى التاسع من شهر آذار (مارس) حيث صدرت إليهم الأوامر بالانسحاب فجأة وبدون أي تفسير. وفي نهاية الصيف نفذت جميع الأعذار التي لجأ إليها لوديك لتأجيل لقائه بالمخابرات السوفياتية خارج الولايات المتحدة. وبدا واضحاً أن عدم مقابلتهم سيثير شكوكهم وبالطبع كان بإمكان زوجته أن تستمر أو بيتر في مقابلتهم واختلاق الأعذار للوديك. وكان ذلك سيؤدي لاستعمال بيتر كعميل مزدوج، وتتعرف المخابرات الأميركية بفضله على جميع طلبات وأسرار المخابرات السوفياتية داخل الولايات المتحدة. غير أن هذه العملية كانت ستعرض حياة بيتر ووالدته أنجا إلى خطر محقق في حالة اكتشاف الكي.جي.بي لخيانتهم. لذلك قررت المخابرات الأميركية «إنهاء هذه العملية» وإخفاء أفراد الأسرة ليعيشوا في مكان آخر مجهول

تحت الأسماء والهويات المستعارة التي منحت لهم. وفي 22 أيلول (سبتمبر) 1978 يوم الأحد انتقلت الأسرة بسيارات المخابرات الأميركية إلى المكان الجديد الذي خصص لإقامتها برعاية المخابرات الأميركية وحسب وعدها لهم. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) 1978 أرسلت المخابرات السوفياتية رسالة إلى لوديك تخطره فيها بأنه (تحت مراقبة) المخابرات الأميركية ويطالبونه بالانتقال إلى فيينا لترتيب مهمة جديدة ومنصب جديد. وبالطبع بقيت هذه الرسالة بلا جواب لأن لوديك انتقل نهائياً إلى جانب الولايات المتحدة ومخابراتها. وإذا سألنا أنفسنا لماذا تصرفت المخابرات الأميركية بهذه الطريقة وقد كان بإمكانها إلقاء القبض على لوديك فور عودته الأخيرة من موسكو وتقديمه للمحاكمة مع عائلته والتشهير بالمخابرات السوفياتية، لوجدنا أنها فضلت تحويله لعميل مزدوج ثم تحويله لصفها بما قدمت له من تسهيلات حيث فازت بالإطلاع على كافة العملاء السوفيات عن طريق مراقبتها لصناديق البريد التي كان يستخدمها لوديك. ثم النجاح في تحويل هؤلاء العملاء إلى عملاء مزدوجين مثل لوديك. كما فازت المخابرات الأميركية بالكثير من المعلومات التكتيكية الهامة عن عمل الكي.جي.بي. وأخيراً لولا اكتشاف المخابرات الأميركية للوديك لكان الابن «بيتر» قد نجح مع والده وترقى في أعلى المناصب الحكومية الأميركية لخدمة المخابرات السوفياتية. وبذلك يتبين لنا أن المخابرات عمل وصبر ودهاء، وإن هدفها هو خدمة مصلحة بلادها سواء المخابرات السوفياتية أم المخابرات الأميركية أم أية مخابرات في العالم.

أنجيلا ماريا رينالدي(*)

(Anjela Maria Renaldi)

(1916 -)

هي جاسوسة سوفياتية أطلق عليه اسم: **«القيصرة الحمراء»**، باعتبارها رئيسة شبكة التجسس في إيطاليا. تزوجت مظلّياً إيطالياً صوّر لها قواعد الحلف الأطلسي، واسمه: جيورجيو رينالدي.

أما قضية أنجلا ماريا رينالدي أو القيصرة الحمراء فقد هزت العالم الغربي.

ففي آذار (مارس) عام 1967 كشف النقاب عن شبكة تجسس ضخمة تعمل في إيطاليا ناشرة خيوطها على معظم بلدان البحر المتوسط والقارة الأوروبية، تمد قيادة الاستخبارات في موسكو بالأسرار الثمينة عن الحلف الأطلسي.

ولقد دهش كثير من الناس عند معرفتهم أن رئيسة تلك الشبكة لم تكن إلا فنانة الهبوط بالمظلات الإيطالية الرائعة الجمال أنجيلا ماريا رينالدي.

(*) المرجع: «الجاسوسية في العالم». مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت 1988. ص344 ـ 347.

ففي عام 1954 قررت قيادة الاستخبارات في موسكو أن أنجيلا ذات الثمانية والثلاثين عاماً يجب أن تكون رئيسة شبكة التجسس في إيطاليا. فقد كانت ذكية، نشيطة وجميلة وكانت تبدو أصغر من عمرها الحقيقي بخمسة عشر عاماً.

ولم تأخذ أنجيلا وقتاً طويلاً للعمل. فقد كانت مجهزة من قبل قيادة الاستخبارات في موسكو بلائحة لأسماء الأشخاص الصالحين للتجنيد وبالأموال اللازمة لدفعها للعملاء والمخبرين. وفي ربيع 1954 كانت أول شبكة تجسس لها تعمل بجدّ. وكان رؤساء الاستخبارات في موسكو مسرورين من الدفق المنتظم للإخباريات السرية التي كانت ترسلها.

وكان أحد عملائها زوجها جيورجيو رينالدي وهو مظلي إيطالي لامع. ولم يكن يعلم بأن زوجته الجميلة كانت تكبره بخمس عشرة سنة، بل كان يعتقد بأنها تصغره بسنة، كما أن بطاقة انتسابها إلى نادي المظليين كانت تؤكد صغر سنّها.

وكان جيورجيو رينالدي يستعمل آلات تصوير حديثة وأفلاماً تقنية في تصويره للقواعد السرية التي كان يطير فوقها لتحضير قفزاته الاستعراضية حيث كان مسموحاً له الدخول إلى مطارات الأطلسي وغيرها بصفته مدرباً. كما كانت لديه الفرص للتحدث إلى «الشخصيات الحسنة الاطلاع»، فكان يسجل كل كلمة لهم على آلات تسجيل دقيقة وصغيرة جداً. كما كان يصور النسخ الكاربونية والمستندات والتصاميم كلما سنحت له الفرصة.

أما أنجيلا التي كان يلقبها عملاؤها بالقيصرة فقد أرسلت إلى موسكو كل الاخباريات والأفلام الميكرو والتسجيلات التي كانت

تستلمها من زوجها ومن غيره من العملاء العاملين في إيطاليا، اليونان، قبرص، الصومال، المغرب، إسبانيا، البرتغال، سويسرا، إسكندنافيا، إنكلترا، تركيا وأفريقيا. بعض تلك المعلومات كان يرسل بالشيفرة بواسطة إذاعات الراديو العالية السرعة، والبعض الآخر كان يصل إلى موسكو بطرق ملتوية كثيرة ضمن رسائل مكتوبة بالحبر غير المنظور، كما كانت ترسل رسائل الميكرودوت تحت الطوابع البريدية الملصقة على البطاقات البريدية أو رسائل الأعمال. أما الأفلام الميكرو والتسجيلات فكانت تخفى داخل أشياء بريئة المظهر.

جيورجيو في موسكو

وبعد سنتين من بدئها العمل، استدعت قيادة الاستخبارات في موسكو زوجها جيورجيو إلى الاتحاد السوفياتي لتلقي التدريبات في شتى قواعد الجيش. فكان عليه ألا يثير شبهات مكافحة الجاسوسية بسفره إلى الاتحاد السوفياتي. فسافر إلى باريس ومنها إلى الاتحاد السوفياتي فأمضى فترة التدريب القصيرة ثم عاد بالطريقة نفسها دون أن يلحظ على جواز سفره أنه دخل الاتحاد السوفياتي أو خرج منه.

وبعد ذلك بقليل بدأت دوائر الأمن الإيطالية تراقب تحركاته وذلك لصداقته مع أحد الضباط السوفيات. وأنذر أحد عملاء أنجيلا رئيسه بالخطر، فأوقف جيورجيو لقاءاته بالضباط. واقتنعت دوائر مكافحة التجسس بعد عدة شهور بأن لقاءات جيورجيو بالضباط كانت بريئة وغير مؤذية فأوقفت مراقبتها له. وخلال السنوات السبع التالية أخذت المعلومات والأسرار الاستراتيجية تتدفق على قيادة الاستخبارات في موسكو دون أن يثار أي شك حول أنجيلا أو زوجها أو أي من عملائها.

وفي عام 1963 عادت الشكوك تحوم حول جيورجيو، فقد كان يعيش في بحبوحة بينما كانت أحوال متجر العاديات الذي كانت تتخذه أنجيلا كتغطية لأعمالها التجسسية، في ضائقة اقتصادية، فأحكم نطاق المراقبة حول جيورجيو ولكن بسرية تامة، بحيث لم يتنبه عميل أنجيلا المراقب لذلك. ولم تظهر تحركات جيورجيو أي شيء يدعو إلى الريب. ولكن مكافحة التجسس تابعت المراقبة بدافع الإحساس بأن ثمة نجاحاً سوف يحقق.

وكان أول اكتشاف لرجال الأمن هو سفر جيورجيو السرّي من باريس إلى موسكو، وكان من المستطاع توقيف جيورجيو بتهمة السفر غير المشروع، ولكنها لم تفعل ذلك لكي تصل إلى الشبكة التجسسية. ولم يتنبه جيورجيو إلى ذلك، بل قام برحلات أخرى غير مشروعة إلى الاتحاد السوفياتي وكان ذلك يحكم الطوق حول عنقه.

محاولة خطف سفيتلانا ستالين

وفي منتصف شهر آذار (مارس) 1967 حينما وصلت سفيتلانا، ابنة ستالين إلى روما، استلمت أنجيلا رينالدي رسالة شيفرة بالراديو العالي السرعة من موسكو تطلب منها خطف ابنة ستالين. وجنّد جميع العملاء والمخبرين وحتى أنجيلا وزوجها وسائقهما أرماندو جيرار لاقتفاء آثار سفيتلانا بينما كانت مختبئة في روما بانتظار طيرانها إلى سويسرا. وعندما عرف أن ابنة ستالين طارت إلى بيرن، قررت أنجيلا أن عملية خطفها يجب أن تتم هناك.

وفي تلك الأثناء لم يكن جيورجيو فحسب بل أنجيلا وأرماندو أيضاً كانا تحت المراقبة الثابتة. وبغفلة عن كل خطر أوقف أرماندو جيرار على الحدود الإيطالية ـ السويسرية بينما كان يجتازها في طريقه

إلى سويسرا. وعثر بحوزته على أفلام ميكرو عن قواعد طيران أميركية في إسبانيا.

وقبضت مكافحة التجسس على أنجيلا ماريا وجيورجيو رينالدي في مدينة تورين. وضبط جهاز راديو مرسل ـ لاقط للموجات القصيرة ذو قوة كبيرة. كما ضبطت كتب شيفرة وأفلام ميكرو عن قواعد الأطلسي في إيطاليا وقواعد أميركية في أماكن أخرى من أوروبا وكمية كبيرة من معدات التجسس.

وكان لعملية القبض على أنجيلا نتائج أخرى في عدة بلدان. فقد قبض على عميلين في قبرص، كما أبعد ملحق وموظف طيران سوفياتيان. وفي اليونان قبض على عميل سوفياتي في أثينا، كما قبض على عدد من العملاء في اسكانديناڤيا، فرنسا، إسبانيا، المغرب وغيرها.

أندريه دو جونغ(*)
(André De Jong)
(-   )

هي إحدى الجاسوسات التي برزت في الحرب العالمية الثانية، حيث أسست منظمة الهروب البلجيكية «كوميت» (النيزك)، وهي المنظمة التي أتاحت للحلفاء، من شهر آب (أغسطس) من العام 1941 إلى شهر حزيران (يونيو) من العام 1944، استعادة مئات الطيارين. مع العلم أن ازدياد عدد النساء العميلات، أجبر النازيين على إقامة معسكر اعتقال آخر في رافينسبورك، بالإضافة إلى المقر الخاص بمعسكر بيركنو.

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية...». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص221.

إنشراح موسى(*)

(Inshirah Mussa)

(- 1937)

هي إحدى عميلات الاستخبارات الإسرائيلية التي جنّدتها للعمل ضد بلدها مصر، والبلدان العربية الأخرى.

ففي مدينة المنيا ولدت انشراح علي موسى عام 1937 لأسرة متوسطة الحال.. وبرغم التقاليد المتزمتة في ذلك الوقت دخلت الفتاة الصعيدية المدرسة وواصلت تعليمها حتى حصلت على الشهادة الإعدادية عام 1951.

وبعد نجاحها بأيام قليلة أراد والدها مكافأتها فاصطحبها معه إلى القاهرة لحضور حفل عرس أحد أقاربه.

كانت انشراح ذات وجه مليح وعينان نجلاوان.. وجسد دبت به معالم الأنوثة وخرطته خرطاً.. فبدت أكبر كثيراً من سنها.. مما لفت الأنظار إليها واخترقتها سهام الباحثين عن الجمال.. فكانت تقابل تلك النظرات بحياء فطري غلف ملامحها مما زادها جمالاً فوق جمال.

(*) **المرجع**: فريد الفالوجي «جواسيس الموساد العرب». مكتبة مدبولي. القاهرة. الطبعة الأولى 2003. ص165 ـ 190.

وفي حفل العرس اصطدمت نظراتها البريئة بنظراته.. فتملكها الخجل وتوردت خدودها للسع لذيذ أحست به يجتاح مشاعرها.. فيوقظها من رقدتها.. معلناً عن مولد مشاعر جديدة غزت عقلها وقلبها لأول مرة.

كان فتاها الذي حرك فيها دماء الأنثى هو إبراهيم سعيد شاهين ابن العريش المولود عام 1929.. الذي ما غادر الحفل إلا وعرف عنها كل شيء. وبعد أيام قلائل فوجئت به يطرق باب بيتها في المنيا برفقة والده.. طارت انشراح من السعادة وحلقت بين السحب بخيالها تستطلع مستقبلها الهنيء.. فمنذ رأته في الحفل انغرس حبه بصدرها.. وباتت لياليَ تحلم به وتترقب الليل لتسرح معه طويلاً.. وتطوف مع نظراته الحانية في عوالم الأمل.. والحبور..

وانزعجت الفتاة الصغيرة عندما اعترضت والدتها في أمر زواجها منه.. متحججة ببعد المسافة بين المنيا والعريش.. وبكت بحرقة وهي ترى أحلامها الوردية تكاد أن تتحقق.. ثم سرعان ما تنهار في ذات الوقت.. دون أن تقدر على عمل شيء..

وأمام دموعها الصامتة.. سألها أبوها:

ـ أتوافقين عليه يا ابنتي..؟

فكان في صمتها إجابتها..

وأعلنت الخطبة..

وفي أول حديث مع خطيبها صارحته بأنها أعجبت به مذ رأته في حفل القاهرة.. وازداد إعجابها به حينما سعى وراءها حتى المنيا ليطلب يدها.

وأكد لها الشاب الولهان أنه تمناها زوجة له منذ النظرة الأولى.. ويومها دعا ربه ألا تضيع منه أبداً.

وفي حفل أكثر من رائع انتقلت انشراح إلى بيت الزوجية في العريش.. تحفها السعادة بحبيبها الذي أيقظ فيها مشاعر دفينة لم تكن تدركها.. وأرسل إلى قلبها سهام الحب فأسلمت إليه نفسها.. وتدفقت موجات متلاحقة من الحب مع كل نبضة من نبضات قلبها الصغير.

كان إبراهيم شاهين يعمل كاتب حسابات بمكتب مديرية العمل بالعريش.. وهو أيضاً لم يحصل سوى على الإعدادية مثلها.. لذلك.. اتفق وانشراح على أن يواصل أولادهما تعليمهم حتى أعلى الشهادات العلمية.. وأصبح هذا الأمل هو هدفهما الذي يسعيان إليه ويعملان على تحقيقه مهما كانت الظروف.

ومرت بهما الشهور حلوة هنيئة تحفل بالبشاشة والانسجام.. فلم يكن إبراهيم يرى في الدنيا زهرة أجمل من وجه حبيبته.. ولا يسمع صوتاً أرق من صوتها.. ولا يظل عقله بمكانه كلما انفرد بها وهي ترقص له بملابسها الشفافة.. فهي تحب الرقص ويستهويها الجنس.. وهو يعشق هذا الجسد الذي يتلوى وينثني أمامه عارياً.. وتحول الجنس عندهما كالهواء، يموتان لو لم يتعاطيانه كل يوم.. إنه يطلبه منها صراحة.. وتطلبه هي تدللاً، وبنظراتها فوران من الرغبة كالجحيم. وكانا إذا ما أظلتهما سحابة حزن فسريعاً ما تنقشع.. حتى اشتهر حبهما بين الأهل والأقارب وبدا قوياً عتياً لا يقطعه الملل أو يضعفه الكلل.

وفي أواخر عام 1955 رزقا بمولودهما الأول نبيل.. ثم جاء المولود الثاني محمد عام 1956، ثم عادل في 1958، فعظم حبه لها لأنها ملأت عليه الدنيا بهجة.. وملأت بيته بضجيج الأبناء الثلاثة.. وهكذا سارت بهما الحياة ترفل في أهازيج الفرح وأغاريد الوئام.

وفي عام 1963 ـ وكما اتفقا من قبل ـ أرسلا بأولادهما إلى عمهم بالقاهرة ليواصلوا الدراسة هناك. . وليعيشوا حياة رغدة بعيداً عن مظاهر البداوة وظروف الحياة الأقل حظاً من العاصمة. . وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1966 ضبط إبراهيم بتلقي الرشوة وحبس ثلاثة أشهر. . خرج بعدها ليكتشف مدى قسوة الظروف التي تمر به. . والمعاناة الشديدة في السعي نحو تحقيق آماله في الارتقاء والثراء.

وذات يوم من أيام التاريخ المكفهرة ـ اجتاحت إسرائيل سيناء واحتلتها في حزيران (يونيو) 1967.. وأغلقت فجأة أبواب السبل أمام السفر إلى القاهرة. . فتأزمت انشراح نفسياً قلقاً على أولادها. . وكانت كلما نامت تراهم في المنام يستغيثون بها فتصرخ وتستيقظ. . ويحتضنها الزوج الملتاع في حنان ويهدىء من روعها. . وإن كان هو الآخر لا يقل عنها قلقاً واشتياقاً لهم.

هكذا تظل انشراح تبكي معظم الليل والنهار حتى قارب عودها على الذبول. . وأوشك جمالها أن ينطفىء. ووجد إبراهيم أن الحياة في العريش كما لو كانت في الأسر. . فالحزن يخيم على البيت الذي ما عرف إلا الضحك والفرح. . والمعيشة أضحت في أسوأ حال. . فمنذ الغزو وهو عاطل عن العمل لا يملك المال الذي يشتري به أبسط الأشياء. . كالشاي. . والشاي عند البدوي يعد من الضروريات الأساسية في حياته. . فاستعاض عنه إبراهيم بعشب بري يعرف باسم «المرمرية» له مذاق طيب. . وأصبحت المرمرية مشروباً مستقلاً في بيته بعدما كانت وريقاتها تضاف إلى الشاي كالنعناع.

وسط هذا المناخ كانت المخابرات الإسرائيلية تعمل بنشاط زائد. . وتسعى لتصيد العملاء بسبب الضغوط المعيشية الصعبة وظروف الاحتلال. . فالاحتلال الفجائي لسيناء وقع على سكانها كالصاعقة،

فاختنقت نفوس الأهالي برغم اتساع مساحات الأرض والجبال.. ولكونهم ذوي تقاليد بدوية ومحبين للحركة والتجوال والتنقل، أحسوا بثقل الأمر ولم يطيقونه.. لكن الظروف التي وضعوا فيها اضطرتهم إلى محاولة تحملها لثقتهم أنها أزمة لن تطول. لكن ما كان يحز في نفوسهم هو تضييق الخناق عليهم في المعيشة والتنقل.. فكانت التصاريح التي يمنحها الحاكم العسكري الإسرائيلي لا تتم بسهولة.. وأصبح السفر إلى القاهرة يحتاج لمعجزة من السماء. فالتعنت في منح التصاريح بلغ منتهاه.. واشتدت عضات الغضب في الصدور.. إلى جانب آلام الجوع التي تنهش الأبدان وتجتث الصبر والقوة.

الأفعى النائمة

ضاقت الحياة باتساعها على إبراهيم وانشراح في العريش.. وخلا البيت من الطعام والشراب والسرور.. وخيمت قتامة سوداوية على نفسيهما.. فازدادا يأساً وشوقاً إلى الأبناء في العاصمة.. وأمام البكاء المستمر الذي تورمت له عينا انشراح.. اندفع إبراهيم إلى مكتب الحاكم العسكري يطلب تصريحاً له ولزوجته بالسفر إلى القاهرة.

ولما ماطلوه كثيراً بوعود كاذبة.. صرخ في وجه الضابط الإسرائيلي قائلاً إنه فقد عمله ودخله ولا يملك قوت يومه.. فطمأنه الضابط «أبو نعيم» ووعده بالنظر في أمر التصريح في أسرع وقت.. وبعد حديث طويل بينهما حاول إبراهيم خلاله التقرب إليه لإنجاز التصريح.. أمر له أبو نعيم بشِوَالٍ من الدقيق وبعض أكياس الشاي والسكر.. فحملها فرحاً إلى زوجته وهو يزفّ إليها السفر إلى القاهرة عما قريب.

استبشرت انشراح خيراً وغمرتها السعادة بما جاءها به، وغاصت في أحلامها وتخيلاتها باللقاء الحميم مع فلذات أكبادها. ولكن الأيام تمر وأبو نعيم يعد ولا ينفذ.. ويعود إبراهيم في كل مرة محبطاً.. لكنه كان يحمل معه دائماً أكياس المواد التموينية التي أصبحت هي المصدر الوحيد للإعاشة.. ولولاها لمات جوعاً هو وزوجته.

وذات صباح فوجىء بمن يستدعيه لمكتب أبو نعيم.. فذهب إليه في الحال وقدم له الشكر على الإعانة الدورية التي يمنحها له.. فأخبره الضابط بأن الحاكم العسكري وافق على منحه تصريح السفر هو وزوجته..

تهلل وجه إبراهيم بشراً وقبل ظهر يده شكراً لله.. فباغته أبو نعيم وقال له بأن موافقة الحاكم العسكري جاءت بشرط أن يكون متعاوناً ويأتيه بأسعار الفاكهة والخضروات في مصر.. والحالة الاقتصادية للبلد بواسطة أخيه الذي يعمل بالاستيراد والتصدير.

أجاب إبراهيم على الفور أن الشرط بسيط للغاية.. فبإمكانه القيام بهذه المسألة خير قيام.. وأضاف بأنه سيأتيهم بأسعار السلع الاستهلاكية والبقالة والسمك أيضاً.. ولو أنهم أرادوا أكثر من ذلك لفعل.

عندئذ.. وضحت الرؤية للضابط الإسرائيلي.. فقد نجح إبراهيم شاهين في الاختبار الأول.. وكان عليه أن يتصرف معه حسبما هو متبع.. ويحيله إلى الضابط المختص لإكمال المهمة.. فدوره ينحصر فقط في «الفرز» لا أكثر.

وبينما إبراهيم وانشراح يحتفلان بالأمل الجديد الذي راودهما طويلاً.. توقفت سيارة جيب أمام المنزل، وطلب منه جندي أن يرافقه إلى مكتب الأمن.. وهناك كان ينتظره ضابط يدعى «أبو يعقوب» بالغ

في الاحتفاء به بدعوى أن أبا نعيم أوصاه به خيراً. فشكره إبراهيم وأثنى على أبو نعيم وامتد بينهما الحوار لوقت طويل.. استشف أبو يعقوب بحاسته أن إبراهيم يدرك ما يبتغيه منه.. فطلب منه أن يذهب معه إلى بئر السبع.. حيث المكتب الرئيسي للأمن المختص بالتعامل مع أبناء سيناء.

وفي بئر السبع استضافوه وأكرموه بكل السبل، ولوحوا له بإغراءات ما كان يحلم بمثلها يوماً.. ونظير إغراقه بالنقود وتأمين حياته وذويه في العريش وافق إبراهيم على التعاون مع الإسرائيليين في جمع المعلومات عن مصر.. وتسلم ـ كدفعة أولى ـ ألف دولار في الوقت الذي لم يكن يملك فيه ثمن علبة سجائر.

لم تكن تلك الإغراءات أو التهديدات المغلفة هي وحدها السبب الأول في سقوطه.. لكن تشريح شخصيته يعطينا مؤشراً عن استعداده الفطري للخيانة.. فلا يمكن لشخص سوِيّ أن يستسهل بيع نفسه ووطنه هكذا بسهولة.. لمجرد منفعة مادية مؤقتة.. فالمؤكد أن خلايا الخيانة كانت قابعة بين أنسجته منذ ولادته.. وكان يجاهد كثيراً حتى وجد لها منفذاً فأخرجها.

ففي بئر السبع تغير المشهد.. إذ تحول إبراهيم شاهين من مواطن يسعى للحصول على تصريح بالسفر إلى القاهرة.. إلى جاسوس لإسرائيل وعيناً لها على وطنه.

تناقض شاسع بين الحالين يدعونا للبحث في تقلبات النفس البشرية التي لا يعلم سرّها إلا خالقها..

أخضع الجاسوس الجديد لدورة تدريبية مكثفة تعلم أثناءها الكتابة بالحبر السري وتظهير الرسائل.. ووسائل جمع المعلومات من الأهل والأصدقاء.. درب أيضاً على كيفية التمييز بين الطائرات

والأسلحة المختلفة.. واجتاز العميل الدورة بنجاح أذهل مدربيه.. فأثنوا عليه ووعدوه بالثراء وبالمستقبل الرائع.. وبحمايته في القاهرة حتى وهو بين ذويه.. فعيونهم في كل مكان لا تكل.

دربوه أيضاً على كيفية بث الإشاعات وإطلاق النكات السياسية التي تسخر من الجيش والقيادة.. إلى جانب الاحتراز وامتلاك الحس الأمني العالي، ولقّنوه شكل الاستجواب الذي سيتعرض له حال وصوله القاهرة من قبل أجهزة الأمن. وكيف ستكون إجاباته التي لا تثير الشكوك من حوله.

وعندما رجع إلى بيته محملاً بالهدايا لزوجته وأولاده.. دهشت انشراح وسألته عن مصدر النقود.. فهمس لها بأنه أرشد اليهود عن مخبأ فدائي مصري فكافأوه بألف دولار.. ووعدوه بمنحه التصريح خلال أيام.

بهتت الزوجة البائسة لأول وهلة.. ثم سرعان ما عانقت زوجها سعيدة بما جلبه لها.. وقالت له في امتنان:

- كانوا سيمسكونه لا محالة.. إن عاجلاً أو آجلاً..

فسألها في خبث:

- ألا يعد ذلك خيانة..؟

فغرت فاها وارتفع حاجباها في استنكار ودهشة وأجابته:

- مستحيل.. كان غيرك سيبلغ عنه ويأخذ الألف دولار.. أنت ما فعلت إلا الصح.

غمغم إبراهيم كأنه مستاء مما فعل وأضاف:

- لقد عاملوني بكرم شديد.. ووعدوني بالكثير بسبب إخلاصي.. وتعهدوا بحماية أهلي وأقاربي إذا ما تعاونت معهم في القاهرة..

صرخت انشراح في هلع:

ـ تعاونت معهم في القاهرة..؟ يا نهار أسود يا إبراهيم..
كيف..؟

وهو يغلق فمها بيده:

ـ طلبوا مني موافاتهم بأسعار الخضر والفاكهة في مصر نظير 200 دولار لكل خطاب.

أذهلها المبلغ فسرحت بخيالها وألجمها الصمت ثم قالت له فيما يشبه الهمس:

ـ أنا خائفة.

جذبها إلى صدره واحتضنها بقوة وأخذ يردد:

ـ أنا لا أملك عملاً الآن وليس لي مورد رزق.. وبالمعلومات التافهة التي طلبوها سآخذ الكثير وسنعيش في مأمن من الفقر.. ثم إنني لست عسكرياً حتى أخاف على نفسي.. ولأنني رجل مدني فمعلوماتي ستكون هزيلة ولن تفيدهم بشيء.

وظل الثعبان ينفث السم الزعاف في أذني زوجته حتى هدأت.. وشمل المنزل سكون لا يقطعه إلا صوت ارتطام الرغبة.. وتصادم جسدان يلهثان بفعل رعشات الشوق وحرارة اللقاء.

وبعدما هدأت الأنفاس وجف العرق.. وارتمت الأعضاء تتوسل الراحة.. لامست بخدها خدَّه.. ولفح وجهه شعرها الكث الناعم الرطب.. وأعلنت المفاجأة التي شلت تفكيره.. وتركيزه أيضاً..

قالت له إنها لكي لا تكون قلقة خائفة.. يجب أن يطلعها على رسائله أولاً بأول.. وأن تقوم بشطب أية معلومات لا داع لإرسالها لهم.

ولما وافقها إبراهيم على الشرط النهائي لموافقتها.. نامت قريرة

العين تتوسد ذراعه.. واستغرق هو في تفكير عميق.. بينما أنفاسها المنتظمة الرتيبة تشبه فحيح أفعى تتربص بفريستها.

أفضل تغطية

في 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 1967 وصل إبراهيم وانشراح إلى القاهرة بواسطة الصليب الأحمر الدولي.. فمنح سكناً مجانياً مؤقتاً في حي المطرية.. ثم أعيد إلى وظيفته من جديد بعدما نقلت محافظة سيناء مكاتبها من العريش إلى القاهرة.

وبعدما استقرت الأمور قليلاً.. انتقل إبراهيم إلى حي الأميرية المزدحم.. ومن خلال المحيطين به في العمل والمسكن.. بدأ في جمع المعلومات وتصنيفها.. وكانت زوجته تساعده بتهيئة الجو الآمن لكتابة رسائله بالحبر السري.. وكثيراً ما كانت تعيد صياغة بعض الجمل بأسلوب أفضل.. وتكتب أيضاً تحياتها إلى الموساد على أنها شريكة في العمل.. واعتاد إبراهيم أن يختتم رسائله بعبارة: «تحيا إسرائيل العظمى... موسى».

ولأجل التغطية اتجه إلى تجارة الملابس والأدوات الكهربائية.. وبواسطة المال والهدايا كان يتغيب كثيراً عن العمل غالبية أيام الأسبوع. ولشهور عديدة تواصلت الرسائل إلى روما مزدحمة بالأخبار.. مما حدا برجال الموساد إلى دعوته إلى روما لاستثمار هذا الثنائي الرائع في مهام أكثر أهمية..

وفي آب (أغسطس) 1968 وتحت ستار التجارة لا أكثر.. أبحر الثعبان والحية إلى لبنان.. ومنها طارا إلى روما حيث التقيا بمندوب الموساد الذي سلمهما وثيقتي سفر إسرائيليتين باسم موسى عمر ودينا عمر. وعلى طائرة شركة العال الإسرائيلية طارا إلى مطار اللد..

كان استقبالهما في إسرائيل بالغ الحفاوة والترحيب.. إذ عوملا معاملة كبار الزوار.. وأنزلا بفيلا خيالية في تل أبيب مكثا بها ثمانية أيام.. حصلا خلالها على دورة تدريبية مكثفة في تحديد أنواع الطائرات والأسلحة.. والتصوير الفوتوغرافي.. وجمع المعلومات.. ومنح إبراهيم رتبة عقيد في الجيش الإسرائيلي باسم موسى، أما انشراح فقد منحت رتبة ملازم أول باسم دينا.

وفي مقابلة مع أحد القيادات العليا في الموساد.. أكدت انشراح على ضرورة زيادة المكافآت لاشتراكها في العمل يداً بيد مع إبراهيم.. ووصفت له صعوبة جمع المعلومات ما لم يشتركا معاً في جمعها وتصنيفها.. وأفاضت في سرد العديد من الحيل التي تقوم بها لانتزاع المعلومات من العسكريين الذين صادقهم زوجها ويجيئون إلى منزلهما.. ومن ذلك أنها تعلن بمرارة مدى كراهيتها للإسرائيليين وتنتظر يوم الانتقام منهم.. ولأنهم يتحدثون مع امرأة جميلة سرعان ما تنفك عقدة ألسنتهم.. وتخرج الأسرار منهم بسهولة.. خاصة والخمر تدغدغ الأعصاب وتذهب بالعقل.

ونظراً لأهمية المعلومات التي حصلوا عليها من خلال الجاسوس وزوجته.. فقد قرروا لهما مكافأة سخية وأغدقوا عليهما بآلاف الدولارات التي عادا بها إلى القاهرة.. حيث استغلال وجودهما وسط حي شعبي فقير في عمل الصداقات مع ذوي المراكز الحساسة من سكان الحي.. وإرسال كل ما يصل إليهما من معلومات إلى الموساد فوراً..

لقد برعا خلال حرب الاستنزاف ـ 1967 ـ 1970 ـ في التحليل والتصنيف، وتصوير المنشآت العسكرية أثناء رحلات للأسرة بالسيارة الجديدة فيات 124.

يقول الابن الأصغر عادل في حديث نشرته جريدة «معاريف» الإسرائيلية عام 1997:

«لن أنسى ذلك اليوم الملعون من صيف 1969 طيلة حياتي.. فقد استيقظت مبكراً على صوت همسات تنبعث من حجرة نوم والدي. كان أبي وأمي مستغرقين في نقاش غريب.. وكانت أمي تمسك في يدها حقيبة جلدية بينما كان أبي يحاول إدخال كاميرا إلى داخلها لم أر مثلها من قبل في ذلك الحين.

كانت أمي غاية في العصبية وقالت له: لا ليس كذلك.. هكذا سيرون الكاميرا. فأخرج أبي الكاميرا وأدخلها مرات ومرات إلى الحقيبة.. فجلست أنظر إليهما وهما يتناقشان.. ثم قال لي أبي: نحن ذاهبون في رحلة إلى الإسكندرية.

وخلافاً لنا نحن الأولاد الذين سعدنا جداً بالقيام بهذه الرحلة.. كان الوالد والوالدة غاية في القلق.. ولم أرهما متوترين إلى هذا الحد من قبل.

أخذ أبي يتصبب عرقاً كلما ابتعدنا عن القاهرة، إلى أن بلل قميصه تماماً كلما ابتعدنا أكثر وأكثر من القاهرة. وكان يتبادل الكلمات مع أمي بصعوبة. وصمتنا نحن أيضاً لشعورنا أن هذه الرحلة ليست ككل رحلة.

وفي تلك الفترة كانت هناك قواعد عسكرية ومصانع حربية كثيرة متناثرة حول الطرق الرئيسية في مصر. لم تخف السلطات شيئاً. ربما كنوع من استعراض القوة. وعندما بدأنا في الاقتراب من إحدى القواعد العسكرية أخرجت أمي الكاميرا وأمرها أبي قائلاً:

«صَوِّري.. ياللاّ صَوِّري.. صَوِّري».

فقالت له وأصابعها ترتعش:

«سنذهب إلى الجحيم بسببك».

وحركت أمي الجاكيت المعلق على النافذة وبدأت في التصوير. وامتلأت السيارة الصغيرة بصرخاتها الممزوجة بالخوف. فأجابها أبي بنفس اللهجة:

«هذه نهايتنا».

واستمرت أمي في احتجاجها قائلة:

«سنذهب إلى السجن».

وفي النهاية نظر أبي إليها بعيون متوسلة:

«عدة صور أخرى.. فقط عدة صور أخرى».

وحاول «محمد» أن يسأل ما الذي يحدث لكن الردّ الذي تلقاه كان «أسكت» فلم نسأل أية أسئلة أخرى بعد ذلك.

عدنا للبيت سعداء في ذلك اليوم. وعلى الفور أغلق أبي حجرته على نفسه وبعد فترة طويلة خرج وعانق أمي وقال لها:

«يا حبيبتي لقد قمت بالتقاط صور رائعة للغاية»..

وبكت أمي وقالت له:

«إلى هنا يجب أن نشرح الأمر للأولاد».

وكنا ما زلنا في صدمة وغير مدركين لهذه الجلبة التي تحدث.

وتحولت الرحلات الأسرية في أنحاء مصر إلى روتين.. وكنا نخرج في نهاية كل أسبوع وكنا نسافر إلى الأقصر، وأسوان، ليس هناك مكان لم نذهب إليه.. وأحياناً كان أبي يحصل على إجازة في وسط الأسبوع وكنا نسافر لعدة أيام.. وقد صَوَّرت قواعد ومنشآت عسكرية في مصر.. وكان أبي يُسجِّل عدد الكيلومترات في الطريق.. وبذلك يحدد موقع المصانع والقواعد العسكرية.. وكنا نحن الأولاد أفضل تغطية».

ضمان الولاء

تعددت زيارات إبراهيم وانشراح إلى روما.. بعضها كان باستدعاء من الموساد.. والبعض الآخر كان لاستثمار عشرات الآلاف من الدولارات التي حصلا عليها من جراء عملهما في التجسس.

وفي إحدى هذه الزيارات.. قررا إشراك ولديهما لزيادة الدخل بتوسع حجم النشاط.. ولم يكن من الصعب عليهما تنفيذ ما اتفقا عليه..

يقول الابن عادل في حديثه المنشور بجريدة «معاريف»:

«عاد أبي وأمي ذات مساء من روما يحملان لنا الملابس الأنيقة والهدايا..

وأحسست من خلال نظراتهما لبعضيهما أن هناك أمراً ما يجري الترتيب له. وعرفت الحقيقة المرة عندما أجلسني أبي قبالته أنا وأخويَّ وقال في حسم:

مررنا كثيراً بظروف سيئة.. لم نكن نملك أثناءها ثمن رغيف الخبز.. أو حفنة من الملح. والآن نعيش جميعاً في رغد من العيش.. ويسكن حوالينا أولاد في عمركم يحيون جوعى كالعبيد.. أما أنتم فتنعمون بكل شيء كالملوك. ولم تسألوني يوماً من أين جئت بكل هذا..؟.

إن عملي في الحكومة.. وتجارتي أنا وأمكم وشقائي طوال تلك السنوات لم يكن هو سبب النعيم الذي نحن فيه جميعاً الآن..

والحقيقة.. أن هناك أناساً يحبوننا للغاية.. وهم هؤلاء الذين يرسلون لنا الهدايا والمال.. وبفضلهم لدينا طعام طيب وملابس جميلة.. إنهم الإسرائيليون.. وهم الذين أنقذوا حياتنا من الجوع

والضياع.. وأمَّنُوا لنا مستقبلاً مضموناً يحسدنا عليه كل من نعرفهم..

حدث ذلك في صيف 1971، وكنت وقتها في الثالثة عشر من عمري، وكان أخي نبيل يكبرني بعامين تقريباً وأخي محمد بعام واحد.

وكطفل.. لم أعر الأمر أهمية خاصة.. لحقيقة أن أبي «يعمل» مع الإسرائيليين. ومثل كل الأولاد.. كنت قد كبرت وتربيت على كراهية اليهود.. لكن في البيت تلقيت تربية أخرى.. فقد عرفت أن الإسرائيليين هم المسؤولون عن الطعام الذي آكله.. وعن الملابس الجديدة التي أرتديها.. وعن الهدايا التي أتلقاها.. لذلك.. سعدت لأنني كنت محظوظاً.

وكلما كبرت.. بدأت أدرك معنى «عمل» أبي.. وبدأ الخوف ينخر أكثر وأكثر في عظامي.. فقد كانت كماشة من الموت تطبق علينا.. وكفتى بالغ أدركت أنهم لو ضبطونا سيتم شنقنا.. من ناحية أخرى كان الخوف من حياة الفقر يصيبني بالشلل.. فقد كنت ملكاً لديه كل شيء».

هكذا انخرطت الأسرة كلها في التجسس.. وأصرّت انشراح على الانتقال من الحي الشعبي الفقير إلى آخر أكثر رقياً وثراء.. وعندما عارض زوجها قالت له:

دعنا نستمتع بالحياة فربما ضبطونا.

وفي النهاية انتقلوا إلى فيلا فاخرة بمدينة نصر.. ونقل نبيل ومحمد وعادل من مدارسهم إلى مدرسة أخرى في الحي الراقي الجديد.

احتفظ إبراهيم شاهين بعلاقاته القديمة وأقام أخرى جديدة.. وامتلأ البيت مرة أخرى بالأصدقاء من رجال الجيش والطيارين..

وتحول أولاده إلى جواسيس صغار يتنافسون على جلب المعلومات من زملائهم أبناء الضباط في المدرسة والشارع. . ومناوبة الحراسة ريثما ينتهي أباهم من تحميض الأفلام. . فكان نبيل يتولى المراقبة من الخارج. . وعادل من داخل البيت. . وحصل نبيل على أدوار أكثر جدية. . فكان أبوه يسمح له بكتابة الرسائل بالحبر السري وتظهيرها. . وصياغة التقارير وتحميض الصور.

وذات مساء بينما هم جميعاً أمام التليفزيون. . عرض فجأة فيلم تسجيلي عن أحد الجواسيس الذي انتهى الأمر بإعدامه شنقاً. . وطوال وقت عرض الفيلم انتابتهم حالة صمت تضج بالرعب والفزع. . واستمروا على تلك الحال لأسابيع طويلة. . امتنعوا خلالها عن كتابة التقارير أو الرسائل. . حتى تضخم لديهم الخوف وأصيبوا بالصداع المستمر. . ومرض إبراهيم فاضطرت انشراح للسفر وحدها إلى روما تحمل العديد من الأفلام. . خبأتها داخل مشغولات خشبية.

كانت الرحلة إلى روما منفثاً ضرورياً للخروج من أزمتها النفسية السيئة. . وفي الوقت نفسه لتطلب من رجال الموساد السماح لهم بالتوقف عن العمل. . فلما التقت بأبي يعقوب ضابط الموساد الداهية. . قصت عليه معاناتهم جميعاً ومدى الخوف الذي يسيطر على أعصابهم. . فطمأنها الضابط ووعدها بعرض الأمر على الرئاسة في تل أبيب. . وصحبها إلى ناد ليلي فرقصت وشربت لتنسى همومها. . وعادت معه آخر الليل ثملة لا تعي ما حولها. . وفي الصباح وجدت نفسها عارية بين أحضانه فبكت. . ومع أحضانه الدفيئة تكرر المشهد وهي بكامل وعيها. . فذاقت للجنس طعماً جديداً لا تعرفه. . ولم تتذوقه مع زوجها الذي انشغل عنها ولم يعد يهتم بها. . بعدها عادت إلى القاهرة تحمل آلاف الدولارات. وكانت قد طلبت منه قبل أن

يفترقا في روما أن يرسل في طلبها بمفردها في المرات القادمة..

هكذا. لقد نسيت انشراح رغبتها في اعتزال الجاسوسية.. واستمرأت مذاقات اللذة الجامحة مع ضابط الموساد الذي لم يبخل عليها بفحولته المغلّفة بالحنان.. وبالرغم من أن ما حدث يخالف وظيفة ضابط المخابرات ومهامه.. إلا أنه ما لجأ إلى ذلك سوى لرغبته في احتوائها.. وضمان ولائها لإسرائيل.

وفي آخر أيلول (سبتمبر) 1973 كانت انشراح بمفردها في رحلة أخرى إلى روما.. فاستقبلها أبو يعقوب المسؤول عن توجيهها واستلام التقارير والأفلام منها. لذلك فقد كان عليه أن يسارع بمغادرة بئر السبع إلى اللد ثم روما في كل مرة تطير فيها انشراح خارج القاهرة. وفي ذات الوقت كان الضابط الإسرائيلي مكلف بألا يتعدى أية حدود مع الجاسوسة المصرية طالما رغبت هي في ذلك.. لكن ولأن انشراح كانت من النوع الحار لم تجد غضاضة في أن تنغمس في بحور اللذة لا تريد الطفو على السطح أبداً.. حتى فاجأها أبو يعقوب بنبأ هجوم الجيش المصري والسوري على إسرائيل.. وأن احتمال القضاء على دولة اليهود أصبح وشيكاً. كان يقول لها ذلك وهو يبكي ويترعد جسده انفعالاً.. فأخذت تواسيه وتبكي لأجله ولأجل إسرائيل.. الدولة الصغيرة التي يسعى العرب لتدميرها (!!).

وفي نيسان (أبريل) 1974 اقترحت انشراح على أسرتها السفر إلى تركيا للسياحة.. وبينما هم في أنقرة اتصل بهم أبو يعقوب وطلب من إبراهيم أن يسافر إلى أثينا لمقابلته. ومن هناك سافر إلى إسرائيل. وفي مبنى المخابرات الإسرائيلية سألوه:

● كيف لم تتبين الاستعدادات للحرب في مصر؟

فأجابهم:

ـ لم يكن هناك إنسان قط يستطيع أن يتبين أية استعدادات. فبعض معارفي وأقاربي من ضباط القوات المسلحة تقدموا بطلبات لزيارة الكعبة للعمرة.

وأضاف إبراهيم:

في حالة ما إذا كنت قد علمت بنية الحرب فكيف أتصل بكم..؟ فالخطابات تأخذ وقتاً طويلاً وهي وسيلة الاتصال الوحيدة المتاحة.

وبعد اجتماع مطول قرر قادة الموساد تسليم إبراهيم أحدث جهاز إرسال لاسلكي في العالم يتعدى ثمنه المائة ألف دولار. فلقد كانت لديهم مخاوف تجاه الفريق سعد الدين الشاذلي الذي يريد تصعيد الحرب.. والوصول إلى أبعد مدى في سيناء مهما كانت النتائج.. عكس أنور السادات الذي كان يريدها حرباً محدودة..

دُرِّب إبراهيم لمدة ثلاثة أيام على كيفية استخدام الجهاز.. وعندما تخوّف من حمله معه إلى القاهرة.. عرضوا عليه أن يذهب إلى الكيلو 108 طريق القاهرة السويس الصحراوي.. وهناك سيجد فنطاس مياه كبير مثقوب وغير صالح للاستخدام.. وخلفه جدار اسمنتي مهدم عليه أن يحفر في منتصفه لمسافة نصف المتر ليجد الجهاز مدفوناً. وأخبره ضابط الموساد الكبير أن راتبه قد تضاعف. وأن له مكافأة مليون دولار إذا ما أرسل للإسرائيليين عن يقين بميعاد حرب قادمة.

عاد إبراهيم إلى أثينا ثم أنقره حيث تنتظره الأسرة.. فقضوا أوقاتاً جميلة يستمتعون بالمال الحرام وبثمن خيانتهم.

عندما رجعوا إلى القاهرة استقلوا السيارة إلى الكيلو 108 وغادرت انشراح السيارة وبيدها معول صغير.. وظلت تحفر إلى أن أخرجت الجهاز.. فنادت على ابنها عادل الذي عاونها وحمله إلى السيارة ملفوفاً في عدة أكياس بلاستيكية.. وعندما ذهبوا بالجهاز إلى المنزل أراد إبراهيم تجربته بإرسال أولى برقياته فلم يتمكن من إكمال رسالته.. بعدما تبين له أن مفتاح التشغيل أصيب بعطل (ربما نتيجة الحفر بالمعول).

حزن الجميع.. لكن انشراح عرضت السفر لإسرائيل لإحضار مفتاح جديد. وسافرت بالفعل يوم 26 تموز (يوليو) 1974 ففوجىء بها أبو يعقوب ودهش لجرأتها.. وأراد الاحتفاء بها فأقام حفلاً صاخباً ماجناً على شرفها انتهى بليلة حمراء.. فأمتعت جسدها المتعطش لفحولة أبي يعقوب.. وأرقها الابتعاد عنه والحرمان من خبراته المذهلة وتفنّنه في إشباعها. ومنحها مكافأة لها 2500 دولار مع زيادة الراتب للمرة الثالثة إلى 1500 دولار شهرياً (كان مرتب الموظف الجامعي حينذاك حوالي 17 جنيهاً).

وأثناء وجود انشراح في إسرائيل تائهة بين أحضان ضابط الموساد، كانت هناك مفاجأة خطيرة تنتظرها في القاهرة. فعندما كان إبراهيم يحاول إرسال أولى برقياته إلى إسرائيل بواسطة الجهاز ـ استطاعت المخابرات المصرية التقاط ذبذبات الجهاز بواسطة اختراع سوفياتي متطور جداً اسمه (صائد الموجات) وقامت القوات بتمشيط المنطقة بالكامل بحثاً عن هذا الجاسوس. ومع محاولة تجربة الجهاز للمرة الثانية أمكن الوصول لإبراهيم بسهولة.

وفي فجر 5 آب (أغسطس) 1974 كانت قوة من جهاز

المخابرات المصرية تقف على رأس إبراهيم النائم في سريره. استيقظ مذعوراً. وفي الحال دون أن توجه إليه كلمة واحدة صاح في هلع: -

أنا غلطان.. أنا ندمان.. الجوع كان السبب.. النكسة كانت السبب.. اليهود جوَّعوني واشتروني بالدقيق والشاي.

ولما فتشوا البيت عثروا على جهاز اللاسلكي ونوتة الشفرة.. والتزم إبراهيم الصمت.. وكان بدنه كله يرتجف. سحبوه في هدوء للتحقيق معه في مبنى المخابرات العامة، بينما بقيت قوة من رجال المخابرات في المنزل مع أولاده الثلاثة تنتظر وصول انشراح. تأكل وتشرب وتنام دون أن يحس بهم أحد.

وعلى طائرة أليطاليا رحلة 791 في 24 آب (أغسطس) 1974، وصلت انشراح إلى مطار القاهرة الدولي قادمة من روما بعد شهر كامل بعيداً عن مصر، تدفع أمامها عربة تزدحم بحقائب الملابس والهدايا. ونظرت حولها تبحث عن زوجها فلم تجده، فاستقلت تاكسياً إلى المنزل وهي في قمة الغيظ.. وعندما همّت بفتح الباب اقشعر جسدها فجأة، فدفعت بالباب لا تكترث.. لكنها وقفت بلا حراك.. وبالت على نفسها عندما تقدم أحدهم.. وأمسك بحقيبة يدها وأخرج منها مفتاحين للجهاز اللاسلكي بدلاً من مفتاح واحد. وكانت بالحقيبة عدة آلاف من الدولارات دسها الضابط كما كانت.. وتناول القيد الحديدي من زميله وانخرست الكلمات على لسانها فكانت تتمتم وتهذي بكلمات غير مفهومة.. وقادوها مع أولادها إلى مبنى المخابرات وهناك جرى التحقيق مع الأسرة كلها.

ولما كانت المخابرات الإسرائيلية لا تعلم بأمر القبض على أسرة الجواسيس.. وتنتظر في ذات الوقت الرسالة التي سيبعث بها إبراهيم ليطمئنوا على كفاءة عمل الجهاز.. فوجئت الموساد

بالرسالة.. لم تكن بالطبع من إبراهيم بل أرسلتها المخابرات المصرية..

«أوقفوا رسائلكم مساء كل أحد.. لقد سقط جاسوسكم وزوجته وأولاده. وقد وصلتنا آخر رسائلكم بالجهاز في الساعة السابعة مساء الأربعاء الماضي».

وفي 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1974 صدر الحكم بإعدام انشراح وزوجها شنقاً، والسجن 5 سنوات للابن نبيل وتحويل محمد وعادل لمحكمة الأحداث.

وفي 16 كانون الثاني (يناير) 1977 سيق إبراهيم إلى سجن الاستئناف بالقاهرة لتنفيذ الحكم. كان لا يقوى على المشي.. وإلى حجرة الإعدام كان يجره اثنان من الجنود وساقاه تزحفان خلفه بينما هو يضحك في هستيريا ثم يبكي.. وبعدما تيقن من أنه سوف يُعدم أخذ يردد آيات من القرآن الكريم بكلمات غير مفهومة ثم صاح في انهيار: سامحني يا رب.. وتلا عليه مأمور السجن منطوق الحكم.. ثم ردَّد الشهادتين وراء واعظ السجن.. عندئذ عرضوا عليه آخر طلب له قبل إعدامه فطلب سيكارة.. وبعد أن انتهى من تدخينها جرُّوه جراً إلى داخل غرفة الإعدام.. فقام عشماوي بتقييد يديه خلف ظهره.. ثم ألبسه الكيس الأسود ووضع الحبل في رقبته.. وشد ذراعاً فانفتحت طاقة جهنم تحت قدميه.. وظل الجسد معلقاً في الهواء يتأرجح إلى أن همد وسكن.. واستمر النبض ثلاث دقائق وعشر ثوان بعد التنفيذ.. حتى أعلن طبيب السجن وفاة الجاسوس الذي ظل يتعامل مع الموساد طوال سبع سنوات.

أما انشراح فقد ترددت الأنباء في حينها عن شنقها هي الأخرى.. ولكن في 26 تشرين الثاني (نوفمبر) 1989 نشرت صحيفة

«حداشوت» الإسرائيلية قصة تجسس إبراهيم على صفحاتها الأولى.. وذكرت الصحيفة أن ضغوطاً مورست على الرئيس السادات لتأجيل إعدام انشراح بأمر شخصي منه.. ثم أصدر بعد ذلك عفواً رئاسياً عنها.. وتمكنت انشراح (في صفقة لم تعلن بعد تفاصيلها) من دخول إسرائيل مع أولادها الثلاثة.. حيث حصلوا جميعاً على الجنسية الإسرائيلية واعتنقوا الديانة اليهودية.. وبدلوا اسم شاهين إلى (بن ديفيد) واسم انشراح إلى (دينا بن ديفيد) وعادل إلى (رافي) ونبيل إلى (يوسي) ومحمد إلى (حاييم)..!!!

رافي بن ديفيد

وعن اللحظات الأخيرة التي وضعت نهاية أسرة الجواسيس.. يقول أصغر الأبناء ـ عادل ـ في حديثه لصحيفة معاريف الإسرائيلية، (نشرته جريدة العربي القاهرية في تشرين الثاني (نوفمبر) 1977):

بعد حرب 1973 قرر والدي نهائياً أن تكون هذه هي السنة الأخيرة لهم في أعمال التجسس. وكانت الخطة تقضي ببيع البيت والممتلكات والسفر للولايات المتحدة.. وأنا كفتى في الخامسة عشرة من عمره آنذاك فكرت قطعاً في المستقبل.. ووعدني والدي بإرسالي للدراسة في أفضل كلية هناك. وبعد أن اتخذوا قراراً بأن تكون هذه هي السنة الأخيرة لنا في مصر شعرنا أننا أكثر راحة وأزيح حجر ثقيل من على صدورنا.

لكن كان هناك حادثان في تلك السنة هزا ثقتنا. فقد أراد والدي تجنيد شقيقه أيضاً. وأتذكر النقاشات التي دارت بين أمي وأبي حول ذلك.. فقد خافت أمي من أن يسلمنا شقيق والدي.. وحتى اليوم لست أعرف هل عرف بذلك الأمر أم لا؟.

والحادث الآخر كان بعد الحرب عندما قمنا بزيارة الأخوال.. وتشاجرت شقيقة أمي «فتحية» مع ابنتها نجوى.. وكانت هناك صرخات عالية في البيت وحاول أبي التدخل.. فأغلقت نجوى باب دورة المياه عليها وصرخت في أبي:

«لماذا تتدخل؟ فالجميع يعرف أنك تعمل مع الإسرائيليين».

فدخل أبي وراءها وصفعها، وحتى اليوم لا أعرف من أين عرفت.. وشعرنا أن الأمور خرجت عن السيطرة.

وفي إحدى المرات التي سافرت فيها أمي إلى روما كي تحصل على قطع غيار لجهاز البث الذي عطب.. عاد أبي من العمل شاحباً، وجلس على أحد المقاعد ونظر لي وهمس:

«أعتقد أنهم قد تمكنوا مني».

وصمتنا، وأضاف:

«لقد سألوا عني في العمل».

فبعد سبع سنوات من التجسس كان لأبي حواس حادة، وعندما قال لنا أنهم قد تمكنوا منه كان قد عرف ذلك عن يقين.

كان لدينا في البيت حوالى 6 شرائط أفلام، وبدأ أبي في تمزيقها وحرقها وحرق الخطابات.. وأدركنا أن الحكاية قد انتهت.. وحتى اليوم لست أدري لماذا لم يأخذنا أبي ويهرب، ولماذا لم نطلب منه الهرب؟! وأنا أسترجع تلك الأيام في مخي حتى اليوم لا أفهم لماذا ظللنا في البيت؟.

وفي صباح أحد الأيام استيقظنا على صوت طرقات قوية على الباب، وفي المدخل وقف ثلاثة من الرجال وسألوا أين أبي؟ فقلت لهم إنه في العمل، فدخلوا وطلبوا انتظاره. جلس اثنان منهم في الصالون والآخر أخذ مقعداً وجلس بجانب الباب.. وقلت له:

«سيدي من فضلك أدخل إلى الصالون».

فأجابني قائلاً:

«أشعر بالراحة هنا» فتبادلت أنا وأخي نظرات فزعة، وحاول نبيل الدخول إلى حجرة أبي كي يدمر الوثائق التي كانت هناك.. لكن الأدراج كانت مقفلة وكانت المفاتيح مع أبي، فتبادلنا نظرات يائسة ولم نعرف ما يمكن أن نفعله.

مرت ساعة بدت كأنها الدهر ثم سمعنا أصوات سيارات. واقترب من البيت موكب يتكون من عشر سيارات وكانت سيارة أبي تسير ببطء في المنتصف، وتوقفوا أمام المنزل، واقتحم البيت عشرات الجنود ورجال المخابرات وأدخلوا أبي معهم.. وبدأوا في قلب البيت.. ولا يمكن وصف صرخات الفرحة التي خرجت من الجنود عندما وجدوا جهاز الإرسال وهنأوا بعضهم قائلين «مبروك» وأحنى أبي رأسه وهمس لنا: «آسف يا أولادي».

ويكمل عادل الذي غير اسمه إلى (رافي بن ديفيد) حسب الرواية الإسرائيلية:

بعد القبض على والدي تركتنا السلطات المصرية وكنا في حالة يرثى لها.. وأردت البكاء والصراخ ولم أستطع.. فقد انتهى العالم بالنسبة لي.. وبعد ساعات تحدث أخي محمد للمرة الأولى «ماذا عن أمي؟» يجب أن نحكي لها ما حدث.

وفي الرابع والعشرين من آب (أغسطس) عام 1974، في ساعات الصباح المبكر، وصلت أمي إلى البيت، وفي جيب سري بالحقيبة كانت تخفي قطع غيار الجهاز.. وكانت قد اندهشت من عدم انتظار أبي لها في المطار، وسألت عند دخولها: «أين أبوكم؟» وكان العناق بيننا بارداً فقلت لقد سافر أبي إلى الريف، فهكذا طلب منا

رجال المخابرات المصرية إخبارها.

وفهمت أمي على الفور فلا يمكن الكذب على من يحيا في ظل الموت، فاقتحمت حجرة النوم للبحث عن الجهاز هناك ولم يكن الجهاز موجوداً، فجرت نحو الحمام كي تتخلص من المواد التي تحملها. لكن كان قد فات أوان ذلك. فقد اقتحم البيت اثنان من رجال المخابرات، قال لها أحدهما:

«حمداً لله على سلامتك يا دنيا» فتظاهرت أمي بالبراءة وقالت:

«من هي دنيا؟» أنا انشراح..

قالت ذلك بثقة فابتسم رجل المخابرات في رضا:

«لقد اعترف زوجك بكل شيء».

ذهبنا إلى مبنى المخابرات. وأمام المبنى الذي كنت أعرفه جيداً «فقد التقطنا له بعض الصور» استقبلني رئيس النيابة العسكرية محمد السبكي وقال لي:

«سترى أبويك قريباً».

وفي التحقيق الأول معي أنكرت وقلت إنني لا أعرف شيئاً فأخذني المحقق إلى الفناء.

أصدقاء أبي

بدأت المحاكمة واحتفلت وسائل الإعلام بضبط شبكة التجسس العائلية.. واليوم الذي نشرت فيه القصة كان يوم عيد قومي في مصر، ونقلت أمي إلى سجن القناطر للنساء ونقلنا نحن للسجن الحربي في القاهرة.. وكان أبي يقول في كل مناسبة: «إن الإسرائيليين سوف ينقذوننا ويخلصوننا بعملية خاصة» وحرص على أن يسمع الضباط المصريون أن أصدقاءنا لن يتركونا.

أدخل أبي إلى فرع المحكوم عليهم بالإعدام، ونبيل الذي كان يبلغ 18 عاماً إلى الفرع الحربي. . وتم إدخال محمد إلى فرع ثالث به أشخاص ينتظرون عقوبتهم. . وأدخلوني أنا ـ وكنت في السادسة عشرة ـ إلى فرع القتلة المحكوم عليهم بالإعدام. . أدركت أنها النهاية. ولم أبك فكنت في حالة من اللامبالاة، وبعد شهر تم إخراجي لأول مرة، واقتدت إلى المحاكمة وكان والدي وإخوتي هناك. . وانقض المصورون علينا وكان المشهد فظيعاً.

وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) 1974 صدر الحكم. . وتم اتهامنا بخيانة الوطن والتجسس لحساب إسرائيل. . وحكم على والديّ بالإعدام، وعلى نبيل خمس سنوات أشغال شاقة، وتم إعادتي وأخي محمد إلى السجن إلى اليوم الذي يصدّق فيه الرئيس أنور السادات على حكم الإعدام.

في ذات اليوم ودّعنا والدينا، وأدركت أن الأسوأ من كل شيء قد حدث. . وعدت إلى زنزانتي وأردت بالفعل الخروج للحرية. . لكني صليت من أجل ألا يوقع الرئيس السادات على قرار الحكم. . لأنه في نفس اليوم الذي سأخرج فيه سيتدلى والدي من حبل المشنقة، وتتحول الأيام إلى أسابيع والأسابيع لشهور. . وظللت هكذا لمدة عامين في السجن. . وبين فترة وأخرى، كان مدير السجن يسمح لنا بلقاء أبي لكنها كانت لقاءات قصيرة ومؤثرة، وكان أبي المرتدي ملابس الإعدام الحمراء يقول لنا عن الإسرائيليين:

«عندما أموت ويتم إطلاق سراحكم سافروا إلى إسرائيل. . إلى أصدقائي».

بعد عامين من رؤيتنا إياها للمرة الأخيرة. . ودون إعداد مسبق. . أخذوني وأخي محمد إلى سجن النساء للقاء أمي. . واستمر

اللقاء عشرين دقيقة، وأدركنا أن نهايتها قد اقتربت فمنح مثل هذا التصريح يشير إلى أنه سيتم إعدام أمي في الأيام القريبة.

وتم إعادتنا للسجن الحربي.. وبعد عدة أيام جاء لزيارتنا بشكل مفاجىء شقيق أمي.. وتوقعت أنا وأخي محمد أنباء سيئة إلا أنه كان سعيداً.. وبشرنا قائلاً أنه تم إطلاق سراحكم وسراح أمكم.

بعد ذلك بأسبوع صدق الرئيس السادات على إعدام أبي لكنه عفا عن أمي.

وللتمهيد أمام الرأي العام في الشوارع لعملية إطلاق سراح انشراح.. خرجت الصحف اليومية المصرية بتحقيقات عن تحول أمي إلى قديسة.. ومرورها بفترة من الاعتراف بالإثم، وذلك بعد عامين من إعلان هذه الصحف أن أمي خائنة تستحق الموت. ولم يقبل الشعب المصري قصة انشراح القديسة، وكثيراً ما مررنا بالشوارع وبصق علينا الناس وسبُّونا.. وعدنا إلى الوراء عشر سنوات.. إلى الفقر والجوع.. وفي البداية أقمنا عند شقيقة والدتي.. وبعد ذلك انتقلنا للإقامة في الجيزة.. وعملت أنا ومحمد في أعمال مؤقتة، ومَنْ اكتشف من أصحاب الأعمال مَنْ نحن سارع بفصلنا على الفور. وفي النهاية بدأنا المتاجرة بالملابس وأدوات المطبخ، وكنا نعطي ما نكسبه لأمي ونبيل اللذين كانا لا يزالان في السجن، وفي لقاءاتنا القصيرة مع أبي كان ينصحنا بالسفر لإسرائيل، لكن كنا لا نزال تحت مراقبة المخابرات طوال الوقت.

عذاب الخونة

وفي 16 كانون الثاني (يناير) 1977 عندما وصلنا أنا وأخي إلى البيت، وجدنا أمي منخرطة في البكاء.. فقد كانوا قد أخبروها قبل

ذلك بقليل أنه تم إعدام أبي في الصباح.. ولم نتمكن من رؤيته أو رؤية جثته. وفي اليوم التالي فقط نشرت صورته في كل الصحف وهو يدخن السيكارة الأخيرة قبل الإعدام.

وأدركت فجأة بعد ذلك أنه ليس لدي ما أبحث عنه في مصر، وفي هذا العام رأيت القدس لأول مرة في التليفزيون، حين تم نقل زيارة الرئيس السادات للقدس. وأخبرت أمي أنني أنوي الهرب من مصر إلى إسرائيل، وكانت الخطة هي التطوع في منظمة التحرير الفلسطينية، فقد عرفت أنهم يرسلون رجالاً من لبنان إلى إسرائيل.. واعتقدت أنه ربما يكون ذلك هو أضمن طريق للوصول إلى هناك، وجندت في المنظمة واستقبلني «الإرهابيون» بأذرع مفتوحة، وصدقوا قصة الشاب المحبط الذي يريد الانتقام من إسرائيل على ما فعلته بأبيه، وعندما أدركت أنهم لا ينوون إرسالي لإسرائيل وإنما للتدريبات في أفريقيا تركت المنظمة.

وفي عام 1980 قررت محاولة الوصول إلى إسرائيل عن طريق العريش التي كانت قد أعيدت لمصر، وسافرت أنا ومحمد إلى العريش كي نعبر الحدود، وخاف محمد وعاد للقاهرة وتصادقت أنا مع فتى بدوي وظللت مع أسرته لمدة ثلاثة أيام.. وبعد ذلك قام الفتى بتهريبي إلى إسرائيل عبر الحدود.

وبعد وصولي بشهور معدودة، نجح إخوتي أيضاً في التسلل ودخول إسرائيل.. في البداية تم إسكاننا في منزل للمتعاونين في قلقيلية على حدود كفار ـ سابا ـ وبعد سنة انتقلنا إلى مركز للاستيعاب.. وحصلنا على وثائق هوية إسرائيلية وعادت الحياة لتصبح جميلة.. ومن هناك أكملنا إلى حيفا وهناك اجتزنا «كورس» في الخدمة بالمطاعم والفنادق كي نحصل على مهنة.

تحولت لرافي وتحول محمد إلى حاييم ونبيل إلى يوسي. . وأحياناً اعتقد العرب الذين عملوا معنا أننا من المتعاونين ودخلوا في شجار معنا واليهود من الناحية الأخرى أيضاً لم يفهمونا. . فقد تحولنا إلى إسرائيليين فجأة، وكان هذا سريعاً جداً بالنسبة لنا ربما أسرع من اللازم. . وانتقلنا إلى بئر السبع وتهودنا تماماً وأصبحنا يهوداً.

ورغم ما حصلنا عليه من أموال. . إلا أن مذاقاً مراً بقي في فمنا. . وطوال سنوات حاولت أن أفهم كيف تم القبض علينا؟ في إسرائيل اتهموا والدي بأنه لم يكن حذراً بما يكفي، وأحياناً أعتقد أن يداً مجهولة. . تحديداً في جهاز الأمن هنا في إسرائيل. . أرادت أن يتم ضبطنا بعد تقصير حرب أكتوبر. . وإلا فكيف نفسر جهاز الإرسال العطب الذي أرسلوه لنا؟ وكيف نفسر حقيقة أنه عندما كانت أمي في روما لم تعرف المخابرات الإسرائيلية أن أبي قد ضبط وأرسلوا أمي ثانية إلى مصر؟

وقد انجذبت إلى القاهرة كما تنجذب الفراشة إلى النار، وحاولت الهرب إلى القاهرة ثماني مرات. . ومنذ عدة سنوات ضبطوني على الحدود وأخذوني في أتوبيس لتل أبيب وهناك تم التحقيق معي لفترة طويلة.

مرت عشرون عاماً منذ ذلك اليوم الذي تم فيه إعدام أبي، وقد أطلقت على ابني اسم موشيه ـ أي موسى. . وهو الاسم الكودي الذي حمله أبي الكولونيل موسى، واليوم أيضاً فإن الأشخاص الذين يلتقون معي للمرة الأولى لا يعرفون كيف يحددون من أنا. . هل أنا عربي؟ أم يهودي؟ ويسألونني هل أنت عربي. .؟ وأرد بأدب شارحاً لهم إنني مصري قد تهوَّد، ومن يبدي اهتماماً أكثر أروي له قصة حياتي فيقولون لي. . أحسنت «ويربِّتون على كتفي» وعندما يبتعدون

أدرك تماماً فيما يفكرون ويعتقدون «إن الخائن يظل خائناً لا يغير من الأمر أين يكون فهو أسوأ البشر». وأنا إلى الآن ما زلت أعيش في الماضي.. ولم أنجح في التخلص منه.. وقد تورطت في أعمال فاشلة وأنا عاطل وغارق في ديون ثقيلة، وطلقت زوجتي، لكن جذوري الآن في إسرائيل، ابني هنا، وجاء إخوتي ورائي وأمي أيضاً، واسم أمي على نفس الاسم الكودي الذي أعطي لها ديناً، وأخي يوسي عانى كثيراً في السجن وهو لا يتحدث عن الماضي، ويعيش منذ سنوات مع زوجته في البرازيل، ويعمل حاييم في مصنع للمعادن في وسط إسرائيل.. وكلنا آباء لأطفال فماذا سنروي لأولادنا؟ سنقول لهم إن جدكم كان بطلاً وكان يسمى إبراهيم شاهين.. لكنه كان أكثر صهيونيّة من أي صهيوني آخر تعرفونه.. لكن جثته لا تزال في مصر.. ولا يوجد في إسرائيل نصب تذكاري لذكراه ولا شارع يحمل اسمه.. وفي ذكراه لا يوجد قبر نذهب لزيارته..؟!!.

وأمي اليوم في الستين وتمر بها موجة من الحنين، وتود العودة إلى مصر، فهي تريد رؤية إخوتها والشارع الذي سكنت فيه، وطبعاً لا تسمح لها السلطات المصرية بذلك.. وفي السنوات التي عاشتها هنا كانت تعمل كطاهية في المطاعم.

إن بداخلي غضباً لا يمكن إغفاله، فأنا أشعر أنني ما زلت أدفع ثمناً غالياً لما فعله أبي وأمي وما فعله الإسرائيليون.. ما فعله الجميع.. ورغم الـ 17 عاماً التي عشتها في إسرائيل، يبدو لي إنني لم أسر في الطريق الصحيح بعد.. وأحياناً أفكر لو لم يحدث كل هذا أين كنت الآن؟.

تلك هي النهاية.. ولا يوجد أي تعليق عليها سوى العذاب الذي يعيشه ابن الخائن وإخوته؟! علَّ الخونة يتعظون!!.

أنطوانيت غيانساتا(*)

(Antoinette Giansata)

(-   )

هي إحدى عميلات المخابرات الأميركية ضد فيديل كاسترو. وهي ابنة سام غيانساتا الذي كلّف باغتيال الرئيس الكوبيّ.

هذا وقد كان سام غيانساتا الذي كلف بقتل كاسترو من قبل المخابرات الأميركية «زعيم» مافيا مدينة شيكاغو بعد أن بدأ حياته في الجريمة المنظمة سائقاً لسيارات القتلة بسرعة جنونية، فأبدى موهبة خارقة في قيادة السيارة أثناء ارتكاب الجرائم وتحكماً فذاً في الأعصاب وقت الشدائد والتحقيقات التي لا ترحم. وسام لم يصل إلى أبعد من السنة السادسة الابتدائية لكن ذاكرته قوية إلى حد سيطرته على ملايين الدولارات التي أصبحت تحت تصرفه عندما استطاع أن يحكم إمبراطورية شيكاغو «بعد آل كابوني» الأسطورة. كما تمكن من إبعاد اليهودي ماير لانسكي عن أسوار الإمبراطورية التي عجز عن تسلقها عظماء مافيات نيويورك. وأخيراً قدّرت المخابرات الأميركية سام في أنه الوحيد الذي وعد بتنفيذ ما عجزت عنه حملة خليج الخنازير وهو القضاء على كاسترو وحكمه.

(*) **المرجع**: سعيد الجزائري «ملف الثمانينات عن حرب المخابرات». دار الجيل ودار دمشق 1989. ص53 ـ 61.

كيف كان يعيش سام غيانساتا:

«سام» الاسم الأول لسام غيانساتا حاكم إمبراطورية المافيا في شيكاغو والذي كان يقيم في فيللا أو دارة فخمة في منطقة إلينوي مع ابنته أنطوانيت ،وكانت الأف.بي.أي (المباحث الأميركية) تضعه تحت المراقبة الدقيقة. كما كان موضوعاً تحت مراقبة البوليس وجواسيس المافيا المنافسة. وكانت مراقبته تمتد من المحيط إلى المحيط ومن الأطلسي إلى الباسيفيك فتراقبه العيون وتستمع إلى خطاه الآذان أينما حل وارتحل، ولا تهم نتيجة المراقبة سواء كان في فلوريدا أو في الباهاما أو في الكاريبي أو في المكسيك أو يسير في الشارع أو يوجد مع امرأة في السرير (أي خصوصياته)، المهم معرفة مكان وجوده لرصد حركاته ومعرفة خطواته. وكان سام يشعر بكل ذلك الحصار ويتمنى لو يعيش لوحده حفاظاً على خصوصياته لأن هذه المراقبة المستمرة ليلاً ونهاراً قد أتعبته وأرهقته. ولنعد إلى أحد أيام أيار (مايو) من عام 1961 وكانت الشمس مشرقة على منزل العائلة في إلينوي وسام يجلس على كرسيّه الخيزران المتحرك وقد ارتدى قميصاً أزرق مفتوح الرقبة وعلى جانب القميص الأيمن طرزت الأحرف الثلاث S-M-G بخيوط من الذهب الخالص وتتدلى علاقة مفاتيحه الذهبية من مقدمة الحزام بسلسال حتى جيبة بنطاله اليمنى. وفي يده اليسرى ساعة ذهبية عقاربها مشكولة بالألماس الصافي. وبين أصابعه عود ذهبي أهدته له زوجته (مؤخراً) لتحريك الثلج في كؤوس الويسكي. وفي هذا الجو دخلت عليه ابنته المتزوجة انطوانيت وطبعت قبلة على خده وجلست أمامه في هذه الغرفة التي لم يكن الصوت يتسرب من جدرانها لأنها صممت ضد اختراق حاجز الصوت، لأن سام يعرف أن خصومه يسلطون على منزله أجهزة التنصت الحديثة التي

تلتقط ما يجري وراء جميع الشبابيك والغرف المغلقة، وفي هذه الغرفة يجتمع القادة إن جاز التعبير والزعماء والعظماء (جميع هذه الألقاب كانوا يستعملونها ويتقاسمونها فيما بينهم) ليقرروا تغيير وجه الأحداث في كازينوهات لاس فيغاس وأندية نيويورك واستديوهات هوليوود. أما عائلياً وبعد دخول ابنته إلى حصنه الحصين فقد نظر إليها نظرة ذات معنى فأحست أن أشعة اكس قد انطلقت من عينيه باتجاه دماغها ليقرأ فيه ما يدور في ذهنها قبل أن تنطق بكلمة واحدة. وكانت ابنته تعرف أن والدها يحمل كفاءات جيكل وهايد، وتتعجب كيف يحمل ويمارس هذه الازدواجية في شخصيته. فعندما كانت ابنته في السادسة والسابعة من العمر كان يحملها بين يديه ويضعها على ركبته. وكان يصرف الساعات الكثيرة وهو يزين شجرة الميلاد. وبينما كان يفعل ذلك بتواضع وحنان كان يفكر بمن سيموت ومن يعيش في شوارع شيكاغو. فعلاً كانت شوارع شيشرون في إلينوي منطقة سكنه ترتجف حين تسمع اسمه، وكان يخيم جو الرعب على حفلات الكوكتيل في شيكاغو عندما يدخل سام إليها محاطاً برجاله ويصل هذا الرعب حتى شواطىء كاليفورنيا. وعندما كان سام يغضب فيتحول إلى حيوان غابة فينطلق إلى العنف والقوة حيث يعذب المناوئين له عذاب القرون الوسطى، فيعلقهم على كابلات الجزارين التي تسمى بالعربية (شناكل) ومن لم يطله ليعلقه يأمر بقتله فيقتل وهو على سلم دار القضاء، أو وهو بين يدي رجال البوليس. وقد وصف من قبل الصحف والتلفزيون والأف.بي.أي وبوليس شيكاغو بأنه أقوى «عراب» في نيويورك منذ صعود سلم الزعامة إلى عام 1974 أي قبل سنة من مقتله عام 1975. أما ابنته التي جلست أمامه كما ذكرنا فرأته تعباً وقلقاً فتجرأت وسألته: بابا سام لماذا لا تتوقف؟ إنك تملك الآن كل ما تحتاج إليه

من المال بالملايين؟ هل يحتاج الأمر إلى كل هذا الركض والعناء.. بابا. إنك ملاحق ومراقب بشكل دائم. ضاقت عيناه وهو يحملق في وجه ابنته ثم وضع كأس العصير على المكتب وأشار لها بأصبعه وصرخ في وجهها بأعلى صوته: من أجل السماء. انطوانيت ماذا تعرفين عن أي شيء؟ إنك لا تفهمين شيئاً عن عملي. اهتمي بأمر نفسك، إن ما أفعله لا يخصّك.

صمتت أنطوانيت بعد أن اقترحت على والدها سام أن يتوقف وقد أيقنت في ضميرها أن أباها لا يمكن أن يتوقف عن الزعامة إلا عندما يموت. وصمت سام أيضاً وهو يحملق في ابنته فغيرت أنطوانيت الموضوع وصممت أن تتحدث إليه بأمر خبر قرأته في إحدى الصحف عن «كاسترو وكوبا» وهذا الخبر يتحدث عن دور كندي في عملية خليج الخنازير. وهي تعرف بأن والدها قام بعدة رحلات إلى كوبا لأنه يصطحبهم معه هي ووالدتها وشقيقتها ويتركهم في فلوريدا ويذهب إلى كوبا في رحلة سريعة مع بعض الرجال في بعض الأحيان، ومن هؤلاء الرجال كان جوني روسيللي وهو أنيق مهذب يتحدث بنعومة، عضو مافيا بارز، قتل بعد سام بعام. وكان روسيللي قد أدلى بشهادته أمام لجنة شكلت من مجلس الشيوخ الأميركي في حينه. وهذه اللجنة حققت في مؤامرات قتل شخصيات دولية والمخطط لهذه المؤامرات هي المخابرات الأميركية، وسام نفسه قتل قبل أن يمثل أمام هذه اللجنة التي كان يرأسها السيناتور فرانك تشيرش من «إيداهو». وعندما تتجرأ ابنته أنطوانيت للتحدث معه فهي لا تعرف أي شيء عن المؤامرات الدولية أو عن الـ سي.أي.إيه أو كيف يمكن لوالدها سام أن يرتبط معهم بأي موضوع. وفعلاً لم يكن منطقياً أن تعرف انطوانيت أن والدها يمكن أن يعمل أو يقوم بصفقة مع أي جهة

حكومية «إلا من خلال شرائها والدفع لها» أي رشوتها. ولم يكن أمامها من وسيلة لمعرفة مدى الكراهية التي يضمرها والدها لكاسترو لأنه لم يناقش هذا الموضوع أمام أي شخص من العائلة. والذي عرفته ابنته أنطوانيت عن مسألة التهجم على كاسترو أو كراهيته له هو ما يكون قد تحدث عنه «عرضياً» مع بعض الأصدقاء، أو عندما يذكر بعض أصدقائه ملاحظات غير مباشرة لها. ومع كل ذلك قالت أنطوانيت لوالدها وجهاً لوجه: أتعرف يا والدي؟ معي الآن موضوع صحفي قد يهمك، إنه عن كوبا. وكيف أن عديداً من الناس قد يفقدون استثماراتهم هناك.

وهنا قفز رأس سام من وراء مجلة كان يقرأ فيها. فقد أثارت اهتمامه الحقيقي لأول مرة منذ دخولها غرفة المؤتمرات. فقد كانت عادة سام تجاهل ما تقوله وهي عادة سيئة فيه، فقد كان يضطرها إلى إجباره على الاستماع لها لأنها كانت تريد أن يشعرها أنها ذات أهمية وليست آلة يحركها كيفما يشاء. تلوّن وجهه بمختلف الألوان وتركزت عيناه على الصحيفة التي تحملها ابنته. فأخذت تقرأ له مقاطع من المقال الذي يذكر ماير لانسكي الشخصية اليهودية المرموقة في عالم الجريمة والذي يعرفه والدها جيداً. وجاء في المقاطع التي قرأتها أنطوانيت أيضاً ذكر لكازينوهات هافانا وما يملكه منها لانسكي وغيره من قادة المافيا. ولم يذكر المقال والدها سام رغم أنه كان أحد المساهمين الكبار في كازينوهات هافانا، بالإضافة إلى امتلاكه شخصياً لشركة ضخمة لصيد «القريدس» يتجول أسطولها البحري من فلوريدا إلى المكسيك ثم كوبا، والمقال الصحفي لم يذكر هذه الشركة أيضاً. ولكن أنطوانيت أوقفت القراءة وقالت لوالدها متسائلة: ألا تملك أنت وأكاردو شركة لصيد القريدس في كوبا؟ فنظر إليها هذه المرة نظرة

قاتلة وقد أمسك بذراع الكرسي متمنياً لو يستطيع خلعه وضربها به.. وقال لها: كم مرّة عليَّ أن أخبرك أن لا تتحدثي في أعمالي ولا عن أصدقائي وماذا نفعل.. أغلقي فمك على أشياء لا تفهمينها. فوجئت أنطوانيت بصراخ والدها وأخذت ترتجف خوفاً. والعرق يتصبب منها. لكن صمتها لم يستمر طويلاً رغم النيران المتطايرة من عيني والدها وفكرت كيف السبيل إلى التوفيق بين متناقضين.

- ترطيب الجو مع أبيها.

- متابعة القراءة من الصحيفة.

● وهي التي صممت على لفت انتباه والدها في هذه الجلسة «الفرصة» مهما كانت النتائج. فهي لم تعد صغيرة يراها والدها ولا يستمع إليها. وإذا كانت لا تستطيع الكلام عن عالم أعمال والدها حسب طلبه منها فهي على الأقل تستطيع الكلام فيما يفيده بطريقة من الطرق، وربما يستمع إليها إذا تحدثت عن «كاسترو». هكذا عرضت هذه الفكرة الجهنمية على خاطرها بسرعة البرق فلم تستطع صبراً وهي لا تعرف حتى ساعتها هذه الأمور:

1 - إن والدها مكلف باغتيال كاسترو.

2 - إن كاسترو سبب مشاكل والدها المالية.

● لكن كيف تعرف الإبنة هذه «الأسرار العليا» ووالدها لا يطلعها على شيء من عالمه الخاص. ولكن طبيعتها كأنثى متحررة وابنة مدلّلة لزعيم مافيا ترك لها الخيار في الحديث عن الجنس والجمال، وهنا بدّلت الحديث عن شركة القريدس إلى الحديث عن كاسترو:

إنه جذاب وجميل عملاق وسيم. إنه يشدني ويجذبني ولو لم أكن متزوجة لتمنيت أن أقابله وأقضي وقتاً ممتعاً معه... أداعب

لحيته. . .، وبالطبع توقعت أنطوانيت ردّ فعل من والدها لكن ليس بالطريقة التي حدثت:

● قفز «سام» عن كرسيه الهزاز وطار في الهواء بخفة ابن العشرين وحط بجانب أنطوانيت. انتزع الصحيفة من يدها بيده اليسرى وصفعها بيده اليمنى صفعة ارتجت من صداها الغرفة وهو يصرخ ويرغي ويزبد: لا تعيدي ذكر هذا الوغد على لسانك في بيتي هذا. . أبداً. . أبداً. . أبداً. وانقلب سام إلى حيوان ناطق تلوّن وجهه، ويداه كانتا ترتجفان وهو يبتعد عن ابنته ويقترب منها وهو يبرطم ويسبّ باللغة الإيطالية (رجع إلى أصله الإيطالي) «هذا ابن الـ. . . هذا الوغد زير النساء المسفلس. . هل لديك أية فكرة عما فعله لي. . وما فعله لأصدقائنا»؟ وقفت أنطوانيت واجمة أمام ما تراه وتسمعه، خافت وكأن الموت الزؤآم يواجهها. لقد رأت والدها غاضباً من قبل لكن أبداً لم تره في هذه الحالة «لأول مرة يضربها». كانت ترتجف بعنف غير دارية بخطوته التالية وكل ما فكرت به في تلك اللحظات أن والدها سيصاب «بسكتة قلبية» لأن عروق وشرايين رقبته ووجهه ويديه كادت أن تخرج من مكانها الطبيعي. كانت ترى النبض ظاهراً وهو يعلو وينخفض. ثم انحنى سام على طاولة وهو يقول:

● اللعنة عليك يا أنطوانيت. إنك لا تعرفين شيئاً عن أي شيء. . لقد خسرت الكثير بسبب هذا الوغد وأنت تتحدثين عنه كما لو كنت معجبة بنجم سينمائي. . أين بحق السماء عقلك. أخرجي من هنا حالاً. أخرجي إلى الجحيم قبل أن أقتلك. عرفت أنطوانيت في تلك اللحظات ما فيه الكفاية عن والدها مما جعلها تتوقف عن الكلام المباح وغير المباح، وأسرعت بالخروج بعد أن رأت الشرر يتطاير من عينيه خوفاً من أن يقتلها فعلاً. . . ولو أنها ابنته!.

أنطوانيت تتأكد من تورّط والدها بمحاولة اغتيال كاسترو:

بعد «14 سنة» من تاريخ ضرب سام لابنته أنطوانيت لأنها امتدحت كاسترو أمامه وفي عقر داره، استُدعي والدها للمثول أمام مجلس الشيوخ برئاسة السيناتور تشيرش لأداء الشهادة في مقتل كنيدي وشخصيات دولية أخرى أهمها فيديل كاسترو. ولكن مفرزة من المخابرات الأميركية اقتحمت فيللته عشية اليوم المقرر لشهادته وأردته قتيلاً ليموت ويموت «سرّ» تكليفه من قبلهم باغتيال كاسترو. وقد حزنت إبنته عليه كثيراً، مهما يكن فهو أب ولكنها حتى بعد هذه السنين كانت متأكدة من أنه كان من الممكن أن يقتلها سواء كانت ابنته أم غير ابنته. وبعد «7» سنوات أخرى أي بعد «21» سنة على حادثة ضربها سمحت لها وزارة الخارجية الأميركية ـ بموجب قانون صدر لديهم يسمح بموجبه لمن يهمه الأمر بالاطلاع على وثائق الدولة بعد مرور عشرين عاماً عليها ـ بالاطلاع على وثائق الـ أف.بي.أي المتعلقة بوالدها. وهنا بدأت أنطوانيت ترى مدى تورط والدها في مؤامرة قتل كاسترو وهذه الوثائق الرسمية تثبت ذلك:

● برقية (1)

«إلى ساكس SACS نيويورك».

2 ـ شيكاغو.

3 ـ ميامي.

من المدير العام لد أف.بي.أي (109 ـ 584).

الموضوع: النشاطات المناهضة لكاسترو ـ الأمن الداخلي ـ كوبا.

[كلمة مشطوبة بالحبر الأسود] 14 ـ 10 ـ 1960 ـ صامويل ـ غيانساتا أكا ـ فائق السرية ـ.

على نيويورك وشيكاغو متابعة هذا الموضوع عن قرب وتقديم استشارة فورية إلى مكتب «المباحث». سلمونا أية معلومات إضافية حول مؤامرة اغتيال كاسترو وبشكل خاص إذا وصلتكم إخباريات تشير إلى عزم غيانساتا السفر إلى منطقة ميامي أو نيته القيام برحلات أخرى متصلة بمؤامرة القتل. عليكم تقديم المعلومات إلى المكتب والإدارات المهتمة بالأمر مع الإيضاحات والتوصيات الواجب أن تغطي كل اتصالات غيانساتا، مع تعريف الشخصيات التي يتصل بها بخصوص هذه المسألة. وعلى شيكاغو أن تعلمنا فيما إذا كان غيانساتا قد قام برحلات جديدة في وقت قريب إلى ميامي أو إلى مناطق أخرى مثل المكسيك، والتي قد تشير إلى إمكانيات اتصالات مع العناصر المناهضة لكاسترو. وعلى شيكاغو أن تراجع السجلات المناسبة لتقرير ما إذا كان غيانساتا قد قام قبل وقت قصير بمكالمات تلفونية إلى مسافات بعيدة مع أشخاص ضالعين في المؤامرة ضد كاسترو. وعلى ميامي أن ترسل إلينا فوراً معلوماتها عن شخصية الشخص الذي قابله غيانساتا على ظهر مركب يرسو على شاطىء فندق فونتين ميامي. على أية حال يجب أن تكون كل التحقيقات والمعلومات التي حصلت عليها ميامي في منتهى السرية حتى لا تثار شبهة [الاسم محذوف] أو تثير انتباه أشخاص متورطين. إن أية مراسلات لاحقة متعلقة بمؤامرة اغتيال كاسترو يجب أن تحصر في إطار السرية المطلقة.

التوقيع

GENERAL PRINCIPAL

المدير العام

● برقية (2)

«إلى مدير أف.بي.أي».

من ساك (SAC) ـ باقي اسم المرسل محذوف من قبل المباحث.

الموضوع: صامويل م ـ غيانساتا ـ أكا ـ [شيفرة] الخوات شيكاغو.

(أول سبعة أسطر من البرقية محذوفة بالحبر الأسود).

نوقش أمر كاسترو وكوبا صاحب الشأن قال: يجب أن ينتهي كاسترو خلال فترة قصيرة [اسم محذوف من قبل الرقابة] سجلت شكاً في حدوث ذلك. وأكد لهم غيانساتا أن ذلك سيحدث في تشرين الثاني (نوفمبر). وأنه قابل الذي سيقتل في ثلاث مناسبات [حبر أسود على اسم القاتل] (القاتل) كان التعبير الذي استخدمه غيانساتا. إذ قال غيانساتا أنه قابل (القاتل) آخر مرة على ظهر قارب راسٍ على شاطىء فندق فونتين بلود، إن كل شيء قد استكمل لقتل كاسترو. قال غيانساتا إن القاتل قد رتب الأمر مع فتاة [ليست موصوفة أكثر من ذلك] لإسقاط «حبّة» في شراب أو طعام كاسترو. وأبلغ غيانساتا أيضاً [الشخصية محذوفة] أن كاسترو في مراحل متقدمة من مرض السفلس وأنه حتى تاريخه لم يُشْفَ بشكل كامل (سطران مطليان بالحبر الأسود).

توجه هذه البرقية إلى:

3 مكاتب:

1 ـ شيكاغو.

2 ـ نيويورك (109 ـ 74).

3 ـ نيويورك (2.. ـ 793).

ملاحظة: أرسلت للسيد المدير فوراً بتاريخ الساعة 9 من 8 ـ 10 ـ 1960.

● وبعدما قرأت أنطوانيت هذه الوثائق استرجعت ذاكرتها عن تلك الجلسة العاصفة التي ضربها والدها على أثر تحدثها عن كاسترو، وأدركت الآن سبب الموقف العدائي الذي اتخذه والدها سام منها ومن كاسترو على حد سواء..؟ وإذا عرفت السبب بطل العجب. وما زال كاسترو شوكة في حلق الولايات المتحدة ومخابراتها... حتى تاريخه.

أنغريد غارب(*)
(Angrid Garb)
(-   )

موظفة في البعثة الألمانية في حلف الأطلسي. جنّدها «كريستوف ويلر»، وهو عميل للاستخبارات الألمانية الشرقية كان يعمل بائعاً للأزهار في بروكسل. وقد زوّدته بالوثائق السرية التي كانت تقع بين يديها، وتمّ اعتقالها في 2 شباط (فبراير) من العام 1979.

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص322.

الفهرس